

© دار خان

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى ٢٠١٤

ISBN ٩٧٧٦٢٩٩٣١٣-٩٧٨

دار خان

ص.ب: ١٣٢ رمسيس - القاهرة - مصر

هاتف: ٠١٠٠٥٥٣٩٤٧٢

e-mail: Darkhan.egypt@gmail.com

Dar Khan

P.O.Box 132 Ramses-Cairo-Egypt

Tel.: 01005539472



The book is translated with a financial support of (KLTI)

Litratue Translation Institute of Korea

Republic of Korea

دانیال دیفو

روبنسون کروز

ترجمة / خالد طوبار



مقدمة

بقلم جان جاك رسوا

"طالما استفدنا بالكتب، وبالمطالعة، فهناك كتاب هو أثنى وأعلى كتب التربية الاستقلالية الطبيعية، وهو أول كتاب يقرؤه طفلي "إميل"، وسيصبح دائماً من المزايا العظيمة ما يجعله أفضل كتاب عنده.

وسيبقى هذا الكتاب هو الأول في هذا الباب، ويظل كل ما غيره -من كتب العلوم الطبيعية- مجرد حواشي وتعليقات عليه، فهو أصدق معيار نقيس به نجاحنا في الحياة، كما نقيس عليه أحكامنا التي نصدرها، وسيبقى -كذلك- متجدد الجمال والأثر في كل وقت نقرؤه، ما دام لنا ذوق يستقطب إليه الفساد.

ما هذا الكتاب إذن؟

ممكن أن يكون هو كتاب لـ"أرسطو" أو "بلين" أو "بوفون"!
لا، ليس كتاب أحد من هؤلاء، بل هو كتاب "روبنسن كروزو".

جان جاك رسو

إلمامة

فرجال التربية جعلوا منها أساسا لتعليم وتثقيف الأطفال، فهي تعلمهم الجد والاستمرار في العمل النافع، وتنشئهم على الحياة المستقلة، وقد جعلوها نظاما للكشافة، كما جعلوها مرشدا لهم ومساعدًا في اقتباس نظرية ربط المواد الدراسية ببعض.

ولد مؤلف القصة "دانييل ديفو" بمدينة "لندن" عام ١٦٦١م، ومات في ٢٦ إبريل عام ١٧٣١م، وكان مشهورا بالصدق والأمانة. أبيه هو "جيمس فو".

وبقا اسم المؤلف -من مهده إلى أن وصل الأربعين "دانييل فو"، ثم تغير بعد ذلك، فناداه الناس بـ"دانييل ديفو"، وكان هذا التغيير له قصة طريقة، هي أنه كان متعودا أن يمضي بحوثه ومقالاته بالحرف الأول من اسمه ويجعله بالاسم الثاني منه كاملا هكذا: "د. فو"، فتعود الناس أن يطلقوا عليه اسم "ديفو".

ولانتشار هذا الاسم غلب على الناس أن ينادوه به لخفته على اللسان وعلى السمع.

وما لدينا أخبارا مؤكدة عن نشأة الكتاب الرائع، ولا نعرف شيئا عن سيرته الأولى، فعلمنا أن أباه كان قصابا يعيش في "لندن" وأنه قد اهتم بتعليم ولده. ولم يتعب في تعهده بالدرس والتحصيل على خيرة معلمي عصره، حتى وصل إلى الرابعة عشرة من عمره، ذهب إلى إحدى جامعات "لندن" ليكمل دراسته، وهكذا تفقه في الدين، ونبغ في علوم الرياضة والجغرافية والتاريخ وما غير ذلك، كما أتقن خمس لغات، وقد وفق إلى كتابة الكثير من البحوث الرائعة، من دينية واجتماعية وإصلاحية وسياسية، فكانت سببا في شهرة موهبته ونبوغه بين معاصريه.

فكان زمنه زمن اضطرابات وثورات، وقد اشترك في بعضها، وعرض نفسه لمخاطر القتل والسجن، فحبب إليه السفر إلى "إسبانيا"، واختفى عامين، ثم عاد إلى وطنه، وساعده الحظ، وتزوج في "لندن"، واشتغل بالتجارة، فلم يوفق، لانصرافه عنها إلى الكتابة والبحث، ولم يمر عليه سبع سنوات حتى تعسر بدينه الذي بلغ سبعة عشر الف جنيه، ولكن ثقة دائنيه به ساعدته -فيما بعد- من أداء دينه.

ثم رحل إلى "برستول"، فأنشأ صحيفة باسمه، وكتب فيها كثيرا من اقتراحاته الاقتصادية المفيدة، فأخذت بها بلاده، وكان يساعد مواطنيه على إنشاء الطرق، والمصارف الاقتصادية للفقراء، وما غير ذلك من تنظيم الخطط المفيدة لتعليم الشعب.

وكان لاقتراحاته تلك أكبر أثر في نفس "بنيامين فرانكلين" الذي قرر أنه استفاد أكبر فائدة من البحث الذي سبقه إليه "ديفو" منذ عدة سنوات، وقد حمد الحظ السعيد الذي قاده إلى هذا البحث في مكتبة أبيه.

وقد اتصل بالملك "وليم الثالث"، ودافع عن سياسته، فاشتهر جدا. ولما مات "وليم الثالث"، انتهز أعداؤه هذه الفرصة، ونكلوا به، ثم عطف عليه الملكة "جنة" بعد أن توسط له أحد الوزراء، فظلت تعتني به حتى ماتت.

كيف اشتهر ديفو؟

أما شهرة ديفو العظيمة، قد بدأت بسبب قصيدة له في الدفاع عن "وليم أورانج": ملك إنجلترا وقتها، ردا على قصيدة نظمها أحد الشعراء في التهكم به، فأكسبته عطف الملك وحب الشعب والحكومة، وكسب منصبا جليلا عام ١٦٩٤م.

ورفض إلا أن يزحم وقته بالعمل، فأنشأ مصنعا كبيرا للطوب، ولكنه لم يوفق فيه لكثرة أعماله.

ثم مات "وليم أورانج" عام ١٧٠٣م، وقتها فقد ديفو أكبر نصير ومشجع له.

في عهد الملكة "جنة" لقي ديفو كثيرا من التعب والإرهاق، فتأول خصومه في بعض مقالاته ما شاء لهم من الحقد والهوى، وانتهى الأمر بمحاكمته ثم بسجنه، وتغريمه غرامة كبيرة في أواخر يونية

عام ١٧٠٣م.

وقد شهر به خصومه لكن ذلك لم يقلل من إعجاب محبيه الذين طالما عرفوا نبله وشرف غايته، وقد كتب في سجنه عدة مقالات نفيسة.

ولما خرج من السجن أنشأ صحيفة أخرى نالت أكبر النجاح، وظلت تصدر إلى عام ١٧١٣م، وكانت أول أمرها تظهر مرة في الأسبوع، ثم مرتين، ثم ظلت تصدر ثلاث مرات في كل أسبوع.

كما لقي ديفو الكثير من التعنت والاضطهاد، وتعرضت حياته للقتل، ثم عاد بعد ذلك إلى التعرض للخصومة مرة أخرى، وقام عليه أعداؤه، فدبروا له المكائد والمؤامرات، ونعتوه بالأنانية، فأنشأ صحيفة جديدة أسماها: "الدعوة إلى الشرف والعدل"، ودافع عن مبادئه وأغراضه دفاعا شديدا، وكانت الصحيفة خاتمة حياته السياسية، ثم ساءت صحته ومرض، ولكن بنية جسمه القوية ساعدته على التغلب على متاعبه وأمراضه، فاسترد صحته بعد قليل.

وقد ألف الكثير من البحوث والمقالات والرسائل في الدين والحكومة والوطن، ثم ألف في آخر أيامه نخبة من الكتب الشائقة التي أقبل عليها الجمهور إقبالا شديدا، فأدرك فحنته تعلق الجمهور بالقصص، وشدة تأثيره بها، إذا كانت القصص صادقة الوصف والتحليل، دقيقة في تصوير الحياة، فالناقصه نجاحا

عظيما، لأن قصته كانت تحلق دائما في جو سحري خلاب، يزينه الصدق والدقة والإخلاص.

وفي عام ١٧١٥م ألف كتاب "معلم الأسرة" فنال حظا من النجاح والانتشار، وأقبل عليه الجمهور، ثم ألف كتابه الخالد "روبنسن كروزو" وهو أشهر قصصه، وقد ظهر فيه أثر القصة العربية الخالدة "حي بن يقظان"، ونشر القسم الأول منه في أبريل عام ١٧١٩م، وقد قارب وقتها الستين من عمره.

وقد لقي هذا الكتاب من الإقبال والشهرة ما لم يكن يحلم به ديفو، وأصبح حبيبا لكل نفس، ومن العجيب أنه لقي كثيرا من المتاعب والصعوبات في البحث عن ناشر ينشره له في أول الأمر، وليس في قدرتنا أن نعمل كم ربح من كتابه، وإن كنا نستطيع أن نعرف مدى نجاحه العظيم، فقد نفذت منه أربع طبعات متوالية في أربعة أشهر متتالية، وبعد زمن قليل ظهر القسم الثاني من القصة، فلقى من الانتشار والنجاح والرواج مثلما لقي سابقه، وهكذا ظفر ديفو بالشهرة عن طريق هذا الكتاب، ولم يظفر بها عن طريق بحوثه السياسية والدينية الكثيرة، على أن له عدة مؤلفات أخرى.

وقد سار على نهجه بعض الكتاب، ولم يقدر لهم الفوز ولم ينجح من بينهم غير "روبنسن سويسرا" أو "الأسرة السويسرية" الذي ألفه "رودلف نيس" استاذ الفلسفة في جامعة "برن" وقد اختار

لقصته أسرة عددها ستة أشخاص، ينجون من الغرق، فتتألف منهم أسرة سعيدة متعاونة، يظلمها الحب والألفة، فتتغلب على العقبات والمصاعب.

على أن ديفو له عدة مؤلفات أخرى، نذكر منها كتابه عن "الطاعون الهائل" الذي انتشر عام ١٦٦٥م، ولكن لم يحظ أي كتاب من كتبه ما حظى به كتاب "روبنسن كروزو" من الخلود، ولقد كانت كتبه جذابه جميلة، ولكن ليس له سحر هذه القصة، وروعة هذا الملاح الذي كتب له أن تغرق سفينته وأن يعيش في جزيرة بعيدة ما فيها بشر ولا نبات.

قد ساعده ما ربحه من المال -لقاء كتابه- على أن يقضي بقية حياته مستريح البال، بعيدا عن الفقر، فبنى قصرا فاخرا، واشترى عربة وفرسا، وعاش عيشة راضية، ولكن صفوه لم يدم، فقد تعبته مرض النقرس، وضايقه عقوق ولده، فعجل ذلك بموته لما به من الحزن والغم، ودفن في "لندن" في الرابع والعشرين من أبريل سنة ١٧٣١م.

١- أسرة روبنسون

ولدت عام ١٦٣٢م بمدينة "يرك" التي اختارها أبي وطنا ثانيا له، بعدد أن كسب من التجارة فيها مكاسب ترضيه وتوفر له عيشة رضية.

وتكونت اسرتنا من: أبي وأمي المسنين، وثلاثة أبناء كنت أصغرهم، والأكبر قد قتل في معركة حربية، والأوسط سافر إلى مكان لا نعرفه، فانقطعت أخباره.

واهتم بي أبي وكان كثير النصح لي، كما اختار لي القانون كي أدرسه، ولكنني كنت شديد الزهد في دراسته، ونفسي لا تميل إليه.

٢- حب السياحة

طالما تمنيت أمنية واحدة وأردت تحقيقها، وهي السفر وركوب البحار، فلم أعد ألتفت إلى نصيحة أبي ولومه، ورجاء أمي، وإلحاح أقاربي، حتى يأسوا من هدايتي لما رأوا إصراري وتملك حب السفر نفسي كأنه إرادة قاهرة سيطرت على نفسي.

٣- نصيحة والدي

أحب أبي وأحترمه فهو حكيم ذو الخبرة، وكان الشلل أفقده القدرة على المشي.

وذاث صباح دعاني إلى غرفته، وعلى وجهه علامات الغيظ والألم، وقال لي: ما الدافع المجنون الذي يدفعك لمغادرتنا ويجعلك باغض حياتنا الهنيئة والراضية، وبيتنا الذي ترعرعت فيه، ووطنك الذي تحبه، ما بالك تفضل التعب على الراحة، وتعرض نفسك لمهالك البحر ومتاعب السفر، مع أن الله سهل لك طرق السعادة والعيش الكريم، فارض بما قسم الله لك واحمده، واعلم أنك إذا أصرت على عنادك، واستمررت في طريق رغبتك المجنونة في السفر، فسأكون وأمك غاضبين عليك، والله سبحانه قد أمرك بطاعتنا".

٤- دعوة مستجابة

لم يترك أبي طريق من طرق النصح والإقناع إلا سلكه، فيعنف مرة ويلين مرة، ويضرب لي الأمثال، وقال في النهاية: يا ولدي أنت كل رجائنا وعزائنا، بعدما فقدنا أخاك الأكبر الذي قتل في الحرب، وفقدنا شقيقك الأوسط الذي أصر على السفر، وانقطعت أخباره،

كما تصر أنت الآن، فإن رفضت نصحي وأصررت على السفر، فلن يبارك الله لك ولن تجد في سفرك إلا التعب والشقاء".
وكانت دعوة أبي مستجابة، ونظرته لمستقبلي صادقه، فقد لاقيت المتاعب بسبب عنادي وإصراري لم يلقاها أحد قبلي.

5-العدول عن السفر

لم يكن في وسعي مخالفة نصح أبي، فيتمثل في حنانه وعطفه في كل كلمة ينطق بها، فنبرته صادقه وعينه تدمع، وألمه يشتد حين ذكر لي موت أخي الأكبر، وانقطاع أخبار أخي الأوسط، فوعده بالرجوع في رغبتني في السفر، وفعلا قعدت عزمي على البقاء في وطني طاعة لأوامر أبي.

6-نقض العهد

وبعد زمن قليل، أخذني الحنين للبحر، والسفر، فنسيت ما عاهدت أبي عليه، فانتظرت حتى يأتي وقت مناسب لأفصح عن رغبتني ثانياً، ولكنني لم أوفق، عندما وجدت أمي مسرورة ذات يوم، فتلطفت في الحديث معها وفي شرح أسبابي، واستئذنتها في سفري

لرؤية البلاد التي طالما سمعت عنها، وأظهرت لها أمنيته التي ملأت نفسي، فلم أعد أصلح لأي عمل آخر، وقلت لها "إذا عجزت عن أخذ الإذن منك ومن أبي، فأنا عازم السفر من غير استئذان، ولا تنسي أنني في الثامنة عشرة من عمري، وأصبحت رشيدا، أملك زمام أمري، وأرى أن الخير في أن يأذن لي أبي في السفر".

٧- غضب أبويه

فاشدد غضب أمي، بعدما سمعت كلامي، وقالت لي "لن يسمح لك أبوك أن تعرض نفسك للمخاطر، فهذه فكرة مجنونة لا تكسب منها إلا تدمير حياتك، فمن الخطأ أن تكمل إرادتك في أن تقنعنا بها".

فأخبرت أمي أبي لما في نفسي، فاشدد ألما وغيظا، وقال لها "لن يسمح لي ضميري أن أتركه يقابل الهلاك والشقاء، ولكن يبدو لي أن التعب مكتوب لهذا الولد التعيس، وسيلقى في سفره المخاطر والهلاك، وعندها سيدرك أن كل ما حدث له من المصائب هو عقاب لمخالفته أوامر أبويه".

وما انقضى عام حتى هربت من البيت قصدا السفر، بعدما عجزت عن موافقة والدي.

وكنت أعجب من تمسكهما بأن أبقى معهما، ولا أعلم ما كان
ينتظرنني من الأهوال.

الفصل الأول

أهوال البحر

١- أول سبتمبر

قادني القدر ذات يوم إلى "هل" ولم أكن أفكر في السفر إليها ولا خطر ببالي ذلك يوما.

ولقيت في طريقي أحد أصدقائي، فسلمنا على بعض، ثم علمت من حديثه أنه عازم السفر إلى "لندن"، ودعاني للسفر معه في سفينة أبيه، فرأيتها فرصة حقيقية لتحقيق أمنيتي دون أي تكلفة، وعاودني حينئذ حب البحر، فنسيت كل شيء، ولم أهتم بكلام والدي لي في هذه الرحلة، ولم أقدر ما الذي سيحدث لي من مخاطر. وركبت البحر.....

وسأتذكر دائما ذلك اليوم الذي شرعت فيه على الخاطرة، فكان أشأم يوم لي في تاريخي، وبداية عهد التعب.

ذلك اليوم هو أول سبتمبر عام ١٦٥١م.

٢-هبوب العاصفة

بدأت السفينة تبحر في عرض البحر، حتى رأيت الأمواج تعلو بقوة، فتملكني الخوف والفرع، فلم أركب البحر قبل هذا اليوم، وأحسست أن هذه نهايتي قد قربت، وعندها تذكرت دموع أمي وهي تنزل مع كلامها، وتذكرت كلمات أبي، وتأكدت أن هذه العاصفة عقابا لي ما فعلته.

واشدد الموج هيجانا، ورأيت العاصفة القوية، وهي تنذرنا بالموت -بين لحظة وأخرى- وقد أوشك الموج العالي أن يهلكنا جميعا، وخيل لي أن السفينة تهبط حتى تلمس قاع البحر، فلم أر إلا الموت، وحينها نذرت لله ألا أركب البحر ما حييت إذا نجوت من الهلاك، ودعوت لله أن ينقذني، وإن حصل ونجوت سأعود لأبي وأمي نادما على عدم سماعي كلامهما، وأعاهدهما ألا أخالفهما مرة ثانية.

وفي اليوم التالي، هدا الجو، وسكن البحر، وبدأت أشعر أن الأمر عادي بالنسبة لي، مع أنني لم أكن شفيت من الدوار.

وبعدما غربت الشمس واقترب الليل، بدا لي جمال البحر

والطبيعة، وهب علينا نسيم خفيف، وأصبح البحر صافيا جميلا المنظر، وظهرت الطبيعة في أجمل أشكالها، عندما رأيت كل هذا نسيت هيجان البحر وما حدث لي ونسيت الوعد الذي قطعته لله والعهد الذي قطعته على نفسي.

وجاء صديق إلي، يطمئنني ويقول "كيف حالك؟، لقد جعلك البحر تخاف كثيرا وتهلع، يا صديقي، لا بد أن تكون شجاعا، فقد أمتلأت نفسك خوفا ورعبا بسبب نسمة خفيفة أتت من البحر". فقلت له متعجبا: "كيف تقول نسمة، وهي عاصفة قوية مخيفة؟". فقال لي: "يا لك من ساذج!، إنها نسمة خفيفة، كيف تسميها عاصفة، قد اعتدناها فلا نخاف منها أبدا، فأنت رجل، ولا بد للرجل أن يكون شجاعا".

٣- في اليوم الثامن

أنساني جمال شكل البحر كل آلامي، والتأمل في جمال الطبيعة، ولم يمر علي سبعة أيام، حتى هدأت نفسي تماما للحياة بالبحر، ولم أتذكر أحدا من أهلي، ونسيت كل النصائح، وفي صباح اليوم الثامن اشتدت الريح جدا، وبدا القلق على الملاحين، فأنزلوا أشرعة السفينة، واستعدوا لملاقاة الخطر وجها لوجه، وعند الظهر اشتد

هياج البحر، ودب اليأس في نفوسنا جميعا، وسمعت صوتا خافتا من ربان السفينة - وكان مثال الشجاعة والقوة- وهو يقول "رحمتك يا إلهي! سنموت جميعا، ولم يبق لنا ملجأ إلى أنت".

خفت خوفا شديدا، عندما شاهدت الأمواج كالجبال، تنقض علينا كل لحظة، فتخيلت أنها ابتلعتنا، ورأينا السفن القرية منا تلقى ما نلقاه، وقد غرقت سفينة كبيرة بالقرب منا، وما انتصف الليل حتى صاح أحد الملاحين يطلب من رفاقه الغوث، فقد ثقت السفينة، فأسرعنا إليه، فرأينا خرما يدخل منه الماء، وتعاوننا على أخراج الماء من السفينة، وسمعنا صوت مدفعا من إحدى السفن القرية تطلقه إنذارا بالخطر، وتطلب النجاة، عندها أغمى علي من شدة الخوف.

ولم أفق من غشيتي إلا بعد وقت طويل، وأطلق رباننا مدفعا يطلب النجدة، فاقتربت منا سفينة صغيرة تنقذنا، فحملتنا إلى باخرة قريبة، ووصلنا إليها لكن بعد عناء وتعب شديدين.

وبعد دقائق قليلة رأينا سفينتنا تغرق، ومضى علينا وقت طويل ونحن نستقبل الخطر وجها لوجه، ولم نبلغ الشاطئ إلا بعد أن ضعفت قوانا وقلنا إننا لن ننجو أبدا.

٤- بعد النجاة من الغرق

كان لا بد أن أفي بوعدتي بعد أن أنقذنا الله من الغرق، وأعود لأهلي تائبًا، لكن غرور الشباب منعني من تحقيق وعدي، ففكرت في شماتة الناس وسخريتهم مني، لما رأيت من الأهوال، في تلك الرحلة الصعبة، فإذا رجعت سأكون سخرية لكل الناس، ف علي نفسي أن أعترف بخطئي، وقد دفعت ثمن الغرور غاليا، فدفعتني العناد لمقابلة المخاطر بالبحر، ولقيت ما لم يلقه أحد.

فنويت -بعد أن سافرت إلى لندن- على مرافقة جماعة من الملاحين في رحلتهم إلى شواطئ إفريقيا، ولم أعلم ما ينتظرنني من مخاطر ومتاعب.

الفصل الثاني بين الأسر والحرية

١-رحلة موفقة

كان من الطبيعي أن تكون حياتي المقبلة لا تخلو من الكوارث والمخاطر، فلا أكاد أنجو من مصيبة حتى أقع أخرى، ومن مازق لآخر أصعب منه، فقد أغضبت أهلي، وأهملت نصائحهم، وخرجت بدون إذنهم، و هنا تأكدت أن ما حل بي من الكوارث لم يكن إلا عقابا على عصياني لهم.

لقد نويت على تكملة المشوار، بعد أن دفعني الغرور أن أعود لبيتي خاسرا. وأردت أن أصحح الخطأ الأول بآخر أشنع منه، فصاحبت ربان إحدى السفن -وكان أول شخص لقيته من الملاحين- حتى عزمت مصاحبته الرحلة، وكانت سفينته ذاهبة إلى شواطئ "غانة" وقد أخبرني ما لقيه من نجاح وغنى وثروة، في رحلته الأولى إلى تلك البلاد، وقد شجعني على مصاحبته بعد ما عرف قصتي، فلم يكلفني من نفقات الرحلة شيئا، واقترح علي

أن أشتري -بما معي من نقود- بضائع لأتاجر بها في تلك البلاد، ففعلت كل ما قاله لي، ونجحت الرحلة، وقد تعب في تدريبي على الملاحة والتجارة، وعدت إلى لندن راضيا بما حدث لي من توفيق وريح.

٢- لصوص البحر

وبعد أيام قليلة توفي الربان، فحزنت لموته جدا، وأعطيت أرملته مائتي جنيه، وأشتريت بمائة جنيه كانت متبقية معي بضائع، وأبحرت إلى "غانة"، ولكن رحلتنا -هذه المرة- لم تلق التوفيق، فقد اعترضنا لصوص البحر في الطريق، فانطلقنا وحاولنا الفرار منهم، وكان في سفينتنا اثنا عشر مدفعا، وعند أعدائنا ثمانية عشر مدفعا، وكنا أقل منهم عددا، ولكننا تشجعنا في الدفاع عن سفينتنا وقهرناهم مرتين، وفي الثالثة هجموا علينا فتغلبوا علينا، وقتلوا ثلاثة من رجالنا، وجرحوا ثمانية، فاضطررنا للاستسلام لهم، ووقعنا في الأسر.

٣-العبودية

جعلني ربان السفينة عبدا له بعدما أعجب بنشاطي، وخدمته عامين كاملين، وأنا أفكر في طريقة للهرب منه فلا أوفق، وكان كثيرا ما يصحبنى للصيد معه، وكان يثق بي في كل أعماله.

وفي أحد الأيام طلب مني الربان أن أصطاد سمكا ليتعشى به مع ضيوفه، فرأيتها فرصتي للهرب، فقد ترك لي الربان سفينة الصيد ولم يكن معي إلا فتى رقيق، ورجل من أقارب الربان، فقلت للرجل "يجب أن تهيب لنا أكلا حتى لا نأكل من أكل سيدنا".

فسمع كلامي، وأحضر لنا سلة من الفطائر اليابسة والبسكويت، وثلاث جرات ماء، وذهبت إلى مخزن الربان، فأحضرت معي فأسا وقدوما وحبالا، وطلبت من الرجل أن يحضر لنا بندقيات ورصاصا لنصطاد بها، فأحضر ما طلبت، وهكذا أعددت كل معدات الهرب.

٤-الفرار

لقد قررت الفرار ولم أكن واثقا من نجاحه، ولكنني أيقنت أن العزيمة الصادقة تتغلب على كل مشكلة تقابلها، ما دام اليأس لا يعرف طريقا إليها.

وسرنا مسافة طويلة وأنا أوهم الرجل أني جاد في تحقيق إرادة الربان في الصيد، ثم غفلته ورميت به إلى البحر -وكان ماهرا في السباحة- فأوشك أن يلحق بي، فصوبت بندقيتي تجاه رأسه وهددته بالقتل إذا تبعني، فرجع إلى الشاطئ، بعد أن تأكد أنه لن يلحق بي.

وسألت الفتى: "أتعاهدي أن تكون وفيا، أم ترجع كما رجع الرجل؟، لو غدرت بي فسأقتلك".

فابتسم الفتى، وأقسم إنه لن يرجع في وفائه وطاعته والذهاب معي إلى حيث أريد، وظللنا في سيرنا خمسة أيام، والبحر كان جميلا وهادئا، وقد أيقنت أن الربان لن يلحق بنا، فلما حان المساء، قربت من الشاطئ وقررت قضاء تلك الليلة بالقرب منه.

٥-الوحوش المفترسة

خطر لي أن أخرج ليلا إلى الشاطئ لأعرف أين نحن؟ ولكننا سمعنا أصواتا مخيفة، وأحسسنا أن وحوشا تقترب منا، فخاف الفتى وطلب ألا أخرج من المركب حتى لا نتعرض للهلاك، فقضينا ليلتنا ساهرين بالقرب من الشاطئ، ونحن مستعدان للدفاع عن أنفسنا إذا واجهنا الوحوش، ورأيت فريقا منها يتقدم إلى مركبنا، فأطلقت رصاصة على أحدها فرجعت وهي خائفة، من صوت

الرصاص، فلم تكن تعرفه، واشتدت حاجتنا إلى الماء، فأراد الفتى أن أبقى في السفينة."

فاحترمت إخلاصه، ورفضت إلا الذهاب معه، ورسونا بالقرب من الشاطئ، وابتعد الفتى عني قليلا، ثم عاد مسرعا وقد اصطاد أرنباً، ورجع إلى الماء، ثم أكلنا الأرنب مسرورين، وكملنا السير بالقرب من الشاطئ.

٦-صيد الأسد

وفجأة أراد الفتى أن أبعاد عن الشاطئ وكان بصره حاد، فلمحت أسدا ضخما من بعيد.

فخاف الفتى منه، وطلبت منه أن يهدأ حتى لا يشعر الأسد، ثم حشوت البندقيات الثلاث رصاصا، وصوبت الأولى إلى رأسه، وهو نائم. وكان الأسد واضعا إحدى يديه على فمه، فأصوبته بساقه، فتحطمت عظامه، فوقف مذعورا على أرجله الثلاث، واشتد زئيره، فأطلقت الرصاصة الثانية، فمات، وأسرع الفتى إليه، وأصابه رصاصة في أذنه، فمات الأسد من ساعته.

فندمت على ما فعلت، فقد أصعبت ثلاث رصاصات في قتل الأسد، ولحمه غير صالح للأكل.

وأسرع الفتى إلى الأسد، وحاول أن يقطع رأسه بالفأس، فلم يستطع، فاكتفى بقطع إحدى يديه، وحملها إلي، ثم سلخناه في يوم كامل، وجففته الشمس في يومين، ثم أبحرنا عشرة أيام -تجاه الجنوب- وقد أوشك الأكل أن يخلص، ثم سرنا عشرة أيام، ونحن ندعو الله أن نلقى إحدى السفن الذاهبة من "أوربة" إلى "غانة" أو الآتية من "غانة" إلى "أوربة"، فهذا أملنا الوحيد وإلا فسنموت.

٧- على الشاطئ

رأينا جماعة من الرجال عراة بالقرب من الشاطئ، فأردت الذهاب إليهم، لكن الفتى لم يتركني أذهب إليهم، ولم يكن معهم أسلحة، ما عدا رجلا منهم كان يحمل عصا صغيرة، فأشرت إليهم أنني جائع، فطلبوا مني أن أرسو قريبا، وأسرع اثنان منهم بأحضر خبز وقطعتين من اللحم بعد نصف ساعة.

وكنا خائفين منهم، وكانوا خائفين منا، فوضع الرجلان ما أحضراه لنا على الشاطئ ورجعا سريعا رجاء أن يأمننا شرنا، فلما أخذنا الأكل ورجعنا إلى السفينة، عادا إلى الشاطئ عند بني جنسهم، ولم يكن معنا ما نكرمهم به، فاكتفينا بشكرهم.

وفي هذه اللحظة، أقبل وحشان ضخمان، أحدهما خلف الآخر، فهرب الرجال ولم يبق منهم إلا حامل العصا، ثم نزل الوحشان إلى البحر يسبحان ويلعبان، ثم أقبل أحدهما إلى مركبنا، فأطلقت رصاصة على رأسه، وظل ينزل للقاع مرة ويطفو مرة، وهو متجه نحو الشاطئ، ولكنه مات في منتصف الطريق، وهرب الوحش الآخر إلى الجبل، فهلل الرجال متعجبين بما فعلناه، مع خوفهم الشديد مما يحدث فقد سقط بعضهم على الأرض من شدة الخوف، فأشرت إليهم لأطمئنهم حتى زال خوفهم، وبعدها تعاونوا معا وسلخوا الحيوان، وأعطوني جزءا منه لآكله، فلم أقبل واكتفيت بجلد الحيوان، فأخذته ومعه شيء من أكلهم.

فشكرت لهم لإكرامهم لي، ثم أعطيتهم الجرة فارغة وأشرت إليهم أنني بحاجة للماء، ففهموا وملئوها لي، ثم سلمت عليهم وانصرفت نحو الجنوب، وظللت هكذا أحد عشر يوما.

٨- الأمل بعد اليأس

كان مركبي يسير في البحر بصعوبة، وكدت أن أفقد الأمل في أن أنجو. ولم أدر إلى أين أذهب، وبأي إتجاه أسلك، حينها زاد ندمي على مخالفتي والدي، وتذكرت ما نتيجة غروري وعنادي، فاستغفرت الله على ما بدا مني، ودعوته بإخلاص.

بينما أنا في هذه الحالة أقبل الفتى علي وهو يصيح، وخوفه يمسك على لسانه، وقال "انظر هذه السفينة الكبيرة يا سيدي، فأني أخاف أن تكون سفينة الربان".

أما أنا فكنت متأكدا أن الربان لن يجدنا، وعندما رأيت السفينة على مسافة منا، عرفت أنها برتغالية.

وبذلت ما في وسعي حتى أقرب منها لأعرف من فيها فلم أقدر، فيئست من اللحاق بهم، ولكن أحدهم رأني بمجهره وقد أطلقت بندقيتي، حتى يعرفوا أنني بخطر ما.

وبعد ثلاث ساعات استطعت أن أكون معهم، وبعدما عرفوا قصتي، أكرموني وأحسنوا ضيافتي، فأهديت إلى ربان السفينة كل ما معي، فلم يقبل شيئا مقابل ضيافته لي.

فشعرت بسعادة كبيرة بعدما تحقق مقصدي في النجاة.

٩- في الطريق إلى "البرازيل"

كانت السفينة متجهة إلى البرازيل، وقد منع الربان الملاحين من أن يمسا شيئا من متاعي، واشترى مركبي بثمانين جنيها، واشترى الفتى بستين جنيها، وبيع الفتى لم يكن بمزاجي، فما أردت أن أتركه عبدا، لكن الربان وعدني أنه سيطلق سراحه، بعد عشر

سنوات، فقبلت ذلك رغما عني.

وصلنا إلى البرازيل بعد اثنين وعشرين يوما، وكانت رحلة مريحة موفقة.

١٠- في "البرازيل"

عرفني الربان بأحد كبار رجال البرازيل، كان يملك مزرعة للقصب ومصنعا للسكر، وأوصاه علي، فشكرت للربان اهتمامه وفضله لي. فاستفدت من المزارع الكريم، فقد علمني زراعة القصب، وصناعة السكر، وما مرت أربعة أعوام حتى نجحت أعمالي كلها، وأصبحت ميسور الحال.

وكلما ذكرت وطني ندمت لبعدي عنه، واشتد حنيني إليه.

أثناء إقامتي تعرفت على الكثير من المزارعين، وكنا نسهر ونحكي في بعض الأيام، وكنت أذكر لهم ما حصل لي أثناء رحلي إلى "غانة"، وكيف كسبت أموال كثيرة من التجارة بأشياء تافهة كالمقصات والسكاكين والمرايا وما غير ذلك، فاشتدت رغبتهم في السفر إلى "غانة" وأعدوا سفينة كبيرة، وطلبوا مني أن أرافقهم هذه الرحلة، فعاودني الحنين للبحر، وعهدت إلى بعضهم أن يهتم بمصنعي ومزرعتي أثناء غيابي.

ثم أبحرت سفينتنا في أول سبتمبر ١٦٥٩م، وهو مثل اليوم الذي
غادرت فيه وطني واستقبلت عهد التعب، منذ ثمانية أعوام.

الفصل الثالث

في جزيرة نائية

١-هبوب العاصفة

كانت سفينتنا التي أعددناها للرحلة كبيرة قادرة على حمل مائة وعشرين طناً، مزودة بستة مدافع، واخترنا لها أربعة وعشرين ملاحاً.

وقد وضعنا فيها البضائع التي شريناها لتتاجر بها في بلاد "إفريقية" وهي، مقصات وفتوس ومطارق ومرايا صغيرة وأزرّة الملابس وما غير ذلك.

واتجهنا إلى شاطئ "إفريقية"، وقد هبت علينا -في اليوم الثالث عشر- عاصفة شديدة استمرت اثني عشر يوماً، تهدأ ثم تشتد، تشعرنا بالمولوت في كل لحظة.

وظللنا ننتظر الهلاك بكل لحظة، بعد أن تهنا في البحر، خلال أيام العاصفة.

٢-زورق النجاة

ثم رأينا -عند طلوع الفجر- أرضا من بعيد، فشعرنا بأمل كبير في النجاة، ولكننا لم نلبث أن فقدنا الأمل وحل محله اليأس، عندما رمت العاصفة سفينتنا إلى تل من الرمال، وكانت الصدمة قوية جدا، فتعطلت سفينتنا وغطتها الأمواج العالية، فشعرنا بالموت المؤكد، وتأكدنا أن هذه آخرتنا، فلم نستسلم لليأس، فأسرعنا إلى زورق النجاة، فأنزلناه في البحر، وبذلنا جهدنا، وجدفنا بكل قوانا، حتى أصبحنا على مسافة ميل ونصف من الشاطئ، وفجأة ضربتنا موجة قوية، فشعرنا أن جبلا من الماء انقض علينا، فانقلب الزورق في الحال.

ولم أر أحدا من رفاقي بجانبني، ولم أعرف ما مصيرهم.

٣-النجاة من الغرق

أما أنا فقد رمتني الأمواج إلى صخرة كبيرة، وكانت الصدمة قوية، فأغمى علي، ثم أفقت بعدها، وكان من حسن حظي أنني أفقت قبل أن يعيد البحر ثورته.

وبينما موجة آتية لتغرقني إذ أمسكت بالصخرة بكل قوايا، حتى

تبعد المياه عني.

وبعدها هدأ موج البحر قليلا. فبذلت جهدي حتى بلغت الشاطئ،
وانا لا أصدق أنني نجوت من الغرق.

٤- بعد النجاة

شعرت بفرح شديد بعد ما نجوت، وأخذت أبحث في البحر على
أحد من رفاقي، فلم أر إلا ثلاث قبعات، وقلنسوة، ونعلا، على
سطح الماء، فتأكدت أنهم جميعا قد ماتوا، ولم تكتب لهم النجاة.
فتأملت لموتهم، كما تأملت لنفسي أيضا، فقد كنت في حالة يرثى لها،
وما معي غير ثيابي المبتلة، وجوعان، وما معي ما آكله، فشعرت
بضعف، ولم أقدر على مقاومة التعب.

٥- بين أغصان شجرة

خفت أن يقبل الليل، فأكون فريسة سهلة للوحوش، وليس معي
سلاح أصطاد به ما آكله، أو أدافع به عن نفسي من الوحوش
إذا حاولت الهجوم علي، فما معي غير سكينه فقط، فشعرت
بأني ضعيف الحال، ورأيت مستقبلي مظلما، فصرت أجري في كل

مكان، وغمرني الفزع وأنساني الخوف كل شيء.

٦- ثم أقبل الليل

فاشدد رعبي، ووجب علي التفكير في مكان نومي، فاخترت شجرة كبيرة قريبة مني، وجلست بين أغصانها المتشابكة، فغلبنى النوم بعد أن وصلت لأقصى درجات التعب، فنمت طوال الليل، ولم أستيقظ إلا في ضحى الغد، فرأيت الشمس مشرقة، والجو جميل، والبحر هادئاً.

٧- السفينة

أخذت أترقب البحر، فدهشني منظر السفينة واقفة على بعد ميل من الجزيرة، وكان الموح قد أخرجها من الرمال، وقذفها قريباً من الصخرة التي قذفتني إليها الأمواج أمس، حينها رأيت فكرة سديدة وهي أن أسرع إليها، فأخذ منها أهم ما أحتاج إليه في هذه الجزيرة المقفرة، قبل أن تغطي الأمواج السفينة، ويغمرها البحر في قراره، وشجعني هدوء البحر على تحقيق فكري.

كانت الحرارة شديدة وقت الظهر، فخلعت ثيابي وسبحت بالماء، حتى وصلت السفينة، ودرت حولها، فلم أجد طريقة للصعود إليها، وكدت أن أياس من هذه الفكرة، لولا أنني ظفرت بحبل متدل، فتعلقت به وصعدت إلى ظهر السفينة بعد تعب شديد، فرأيت الماء بأرض السفينة ولكنه لم يصل لسطحها، فلم يتلف شيئاً من محتوياتها من المؤون والذخائر، فما شغلني غير البحث عن الطعام والماء، فأكلت حتى شبعت وشربت حتى ارتويت.

٨- المركب الصغير

لم أضع وقتي، فأخذت أجمع الألواح والأعمدة المحطمة والأشعة المقطعة، وصنعت منها مركبا صغيرا، ثم كسرت ثلاثة صناديق وأفرغت ما بها ثم أنزلتها بالحبال إلى ذلك المركب الصغير، وملاؤها بالخبز والأرز والجبن واللحم، ورأيت بالمخزن كمية قليلة من القمح والشعير والبرغل، كنا قد أحضرناها لتغذية طيورنا ودواجنا، فوضعتها في أحد الصناديق، بينما أنا جاد في عملي رأيت الموج يرتفع إلى الشاطئ ويجذب ثيابي المبللة، وقد تأملت حين رأيته على وجه الماء، فأخذت منها ما استطعت، وحملت معي من الآلات والعدد المهمة، وقد ظفرت بصندوق نجار، فكان عندي

أغلى من كنوز الأرض كلها، فألقيت به في المركب الصغير.
كما ظفرت بمسدسين وبندقيتين وسيفين قديمين بها من الصداً ما
بها، وكيس من الرصاص، وعدة أكياس من البارود، وكان بالسفينة
ثلاثة براميل مملوءة باروداً، فبحثت عنها حتى وجدتها، لكن
الماء قد أتلف برميلاً منها، فحملت البرميلين الباقيين إلى المركب،
فما علي إلا أن أذهب للشاطئ، وبعد بحث طويل وجدت ثلاث
مجاديف محطمة، ومنشارين ومطرقة، فحملتها إلى سفينتي،
وحملني المد إلى الشاطئ، حيث انتهى بي إلى مكان قريب عن
المكان الذي حللت به أمس.

الفصل الرابع

الوطن الجديد

١- على قمة جبل

كان أول ما عنيت به أن أتعرف على هذه الأرض المجهولة التي
رمتني الأقدار إليها، لعلي أصادف مأوى ألاجأ إليه.

وكنت أجهل وقتها كل شيء عن هذه الأرض، فلم أكن أعرف هل
هي جزيرة أم قارة؟ مأهولة أم موحشة؟ مكان أمين مطمئن أم
مخيف؟ سكانها متحضرون مثلي أم سفاحون أم يسكنها الوحوش
المفترسة؟.

فأخذت أتربها، فبدأ لي جبل عال من مسافة ميل، فأخذت
بندقيتي ومسدسي، وسرت نحوه حتى وصلت إليه، فوجدته
صعب البلوغ، ولم أبلغ قمته إلا بعد عناء شديد.

وقد تملكني الحزن والألم، عندما عرفت أن المكان الذي أنا به هو
جزيرة، وما حولي البحر، وجزيرتان صغيرتان على بعد ثلاثة أميال
غربا.

وعرفت وقتها أن الجزيرة التي أنا بها بعيدة، لا بها أحد، غير أن

من الممكن أن يكون بها وحوش مفترسة، أما الإنس فلا أمل في وجودهم في هذه الجزيرة الفقيرة التي لا نبات فيها.

٢-الطلقة الأولى

وبينما أنا عائد إلى حيث جئت، إذ رأيت سربا من الطيور الغربية الشكل، فصوبت بندقيتي نحو طائر منها كان على شجرة من أشجار الغابة القريبة مني.

ولعل هذه أول طلقة أطلقها في تلك الجزيرة، وقد خافت الطيور حين سمعت دوي الطلقة، واشتد ارتباكها وارتفع صوتها، ورأيت هذا الطائر يشبه الباشق، وإن كان ما به لحم، لا يسمن ولا يغني من جوع.

٣-كوخ من صناديق

ثم عدت، وظللت أفرغ ما أحضرته من السفينة، وأرتبه، حتى انقضى النهار، وأقبل الليل، فلم أدر كيف أنام خالي البال، آمنا، من غارة الوحوش المفترسة؟ وبعد تفكير عميق اهتديت إلى طريقة ناجحة، فقربت الصناديق التي أحضرتها من السفينة، ثم

صنعت منها كوخاً ألبجاً إليه في هذه الليلة، ورأيتني بحاجة إلى حبال السفينة وأشرعتها، فنويت الذهاب إليها في اليوم التالي وقت انخفاض المد، قبل أن تغرقها أول عاصفة تأتي عليها من البحر.

٤- عودة إلى السفينة

وعندما جاء الغد خلعت ملابسني إلا قميصاً كان ممزقاً وسروالاً ونعلًا، وذهبت إلى السفينة، وأحضرت منها الكثير من الأشياء الغالية التي كنت بحاجة إليها، وقد ظفرت بزكيتين مملوءتين مسامير، كما ظفرت بعدة النجارة، وفيها مسن، واثنتا عشرة قدوما، وغير ذلك، وجمعت كل ما لقيته من الثياب وأشرعة السفينة والأغطية، وعدت إلى كوشي الصغير، وقد شجعني هذا النجاح وأكسبني قوة ونشاطاً عظيمين، وكنت أخاف أن تفترس بعض الوحوش ما تركته من الأكل، ولكنني أطمأنت بعد عودتي وزالت مخاوفي، إذ لم أجد أي أثر لهذه الوحوش، غير أنني رأيت حيواناً، يشبه القط، جالساً على أحد الصناديق، وما رأني حتى هرب مني، ثم وقف على بعد خطوات قليلة مني، وظل يدقق نظره في من غير أن يبدو على ملامحه الخوف، فصوبت إليه بندقيتي، فلم يتحرك، ولم يحاول الفرار، فرميت له قطعة من البسكويت، فاقترب منها وشمها وتذوقها، ثم ابتلعها فوراً، وبدت ملامح الفرح

على وجهه، فعلمت أنه يطلب غيرها، فلم أعطه شيئاً، لأن زادي قليل، فليس من الحكمة أن أسرف فيه فينقص، ولما يئس القط من عطائي، ذهب إلى سبيله.

٥- إعداد المسكن

فكرت في إعداد مسكن يحفظني من الوحوش، ويحفظ أمتعتي من التلف، ويقيها من الأمطار وحرارة الشمس، فبنيت خيمة من الشراع الذي أحضرته، وثبتها بالأوتاد، ووضعت بالخيمة كل ما أحضرته من السفينة، ثم سورت الخيمة بالصناديق والبراميل، وقفلت بابها من الداخل بألواح خشبية، ووضعت خلفها صندوقاً فارغاً، ثم وضعت مسدسين تحت وسادتي، وغطت خالي البال حتى مطلع الفجر.

٦- ذخائر السفينة

أحسست أنني حصلت على ما يكفيني، بل ما يزيد على حاجتي، لكن بقاء السفينة أحسنني بالطمع في الحصول على كل الذخائر التي بها، ما دمت قادراً على الذهاب إليها، فلم يهدأ لي بال إلا

ونويت على التزود منها كل يوم، وبعد ذلك ذهبت إليها ستة أيام متعاقبة، وخيل لي أنني قد أفرغتها من كل ما فيها من أكل وذخائر، ولكنني دهشت في اليوم السابع، إذ وجدت برميلا كبيرا مملوءا بسكويتا، فأفرغته، بعد أن وضعته في قطع من الأشرطة، ثم عدت إلى خيمتي مسرورا راضيا.

٧- الزورة الأخيرة

كعادي ذهبت في اليوم التالي إلى السفينة ولكنني شعرت بهبوب الرياح، فلم أبال، ولم أرجع عن عزمي، وقد لقيت في هذه الرحلة ثلاث مواس، وكانت في غرفة الربان، كما لقيت مقصين صغيرين وعدة ملاعق، وما غير ذلك من الأدوات النافعة، ثم التفت فوجدت ستة وثلاثين جنيها من الذهب والفضة، فابتسمت وقتها ساخرا، فلم أكن بحاجة لهذه النقود في هذه الجزيرة البعيدة، ولقد هممت بإلقائها في البحر، ثم رجعت عن ذلك، ووضعتها في كيس من الخيش، ورأيت السماء تمتلئ بالغيوم، فأسرعت بالعودة إلى كوشي، وقد لقيت عناء شديدا في مغالبة الأمواج ولكنني وصلت سالما بحمد الله.

٨- غرق السفينة

عند رجوعي لخيمتي عنفت الرياح واشتد موج البحر، وظل البحر مضطربا طوال الليل.

ولما أقبل الصباح دققت النظر في عرض البحر، فلم أجد أثرا للسفينة، فأدركت أن العاصفة أغرقتها، فلم أحزن عليها، لأنني لم أضيع وقتا ولا مجهودا في نقل كل ما أحتاج إليه منها في الأيام السابقة.

٩- البيت الجديد

لم يكن أمامي غير التفكير في طريقة تحفظني من شر الأعداء، من الإنسان، أو من الوحوش المفترسة، وظللت أفكر في بناء البيت الذي أشيده، ولم أدر هل من الحكمة أن أحفر كهفا أم أقيم خيمة؟ ثم قررت أن أجمع بينهما، ورأيت المكان الذي أنا به لا يصلح للإقامة الدائمة، لأنه في أرض منخفضة لزجة ومالحة، وبقائي فيها مضر بصحتي، وهو ليس قريبا من الماء العذب، فبحثت عن مكان آخر أكثرا مناسبة لي، فاهتديت إلى المكان المناسب، فاستقررت في سهل صغير أعلى تل مرتفع صخري، وبجانبه ماء

عذب، وهو يطل على البحر، وكان في أعلى ذلك التل صخرة مرتفعة تحفظني من حر الشمس، وتحميني من أعداء الجزيرة، من إنس وحيوان، وكانت الصخرة محفورة بشكل يشبه الكهف، فبنيت خيمتي أمامها، وثبت أوتادها، وشعرت أنني أصبحت آمنة من أي اعتداء، ولم أجعل لبيتي مدخلا أدخل منه، بل سلما أتسلقه، فإذا دخلت البيت رفعت السلم إلى داخله، ونمت طوال ليلي خالي البال، مطمئنا، قريح العين، ثم نقلت في هذا المكان كل ما لدي من متاع وزاد وذخائر، ورفعت في أعلى المسكن سقفا مؤلفا من شرايين، أحدهما فوق الآخر، ودهنتهما بالزفت، ثم عزمت إلى حفر مكان في تلك الصخرة ليكون مخزنا صغيرا في منزلي، فعملت بجهد شديد، وفجأة برق البرق ورعد الرعد فاشتد خوفاً أن يشتعل البارود فيدمر كل شيء فوراً، ثم عزمت إلى تأميني من هذا الخطر، فصنعت أكياسا كثيرة، ووضعت فيها البارود، وفرقتها في أنحاء متباعدة، حتى إذا اشتعلت النار في أحدها لم تصل إلى الآخر، وبهذه الطريقة تأكدت أن البارود لا يشتعل كله، وقد أنجزت هذا العمل في خمسة عشر يوماً متوالية، ووضعت البارود في مائة كيس أخفيتها في ثقوب الصخر، لأحفظه من الرطوبة، وكانت ذخيرتي من البارود لا تقل عن مائة وأربعين رطلا، وقد اشتد حرصي عليها، ولم يرتح بالي إلا بعد أن تأكدت من سلامتها، وذهب خوفاً عليها من التلف.

الفصل الخامس

الزلازل

١- جداء الجزيرة

لم أتوقف عن العمل كل يوم إلا في أوقات قليلة، كنت أخرج في مرة أو مرتين في كل يوم، لأنزه عن نفسي من تعب العمل، أو لأصطاد بعض الحيوانات لغذائي، أو لأتعرّف على أنحاء الجزيرة المجهولة.

وقد لفت انتباهي في أول يوم الجديان التي بالجزيرة، وسرت حين رأيته، ولكن فرحي لم يدم، لأنني رأيته متوحشة مأكرة سريعة الجري، لا أكاد أقرب منها حتى تهرب، وقد حاولت أن أصطاد جدياً من هذه الجداء، فلم أستطع، لسرعتها وخفت حركتها، ولكن اليأس لم يغلب على أمري، وظللت أراقب حركاتها وهي تروح وتأتي، فرأيته تخف مني هاربة، إذ أقبلت عليها من الوادي، وكانت فوق الصخور، فإذا كنت أنا فوق الصخور وكانت هي في الوادي، لم تتحرك، ولم تشعر بي، فعلمت أن بصرها متجه لأسفل، فهي لا ترفعه إلى فوق، فلا ترى ما فوقها، فرأيت أن

أفضل طريقة تمكّني من صيدها بسهولة، هي أن أقبل عليها من فوق تلك الصخور، وأوجه رصاصي نحوها، وقد نجحت هذه الفكرة، وأصبت ماعزا بأول طلقة فقتلتها، وكان معها جدي صغير، فحملتها على كتفي، وتبعني صغيرها حتى وصلت إلى مسكني، وبذلت جهدي في اللعب مع الجدي لعله يألّفني، فلم أفلح، وقد رفض أن يأكل ما قدمت له من طعام، فاضطرت إلى ذبحه وأكله.

٢- مذكرات يومية

وهكذا استطعت أن أرتب حياتي، منذ ما أتيت إلى هذه الجزيرة البعيدة الخالية من الناس، لأول مرة في اليوم المئتم للثلاثين من "سبتمبر"، وكان الوقت خريفا وحرارة الشمس معقولة، وكانت الجزيرة التي أنا بها واقعة على الدرجة التاسعة من شمال خط الاستواء تقريبا.

وما مر علي عشرة أيام حتى خفت أن أنسى تواريخ الأيام، وما معي كراسة ولا ورق ولا حبر، فلم أعرف كيف أسجل تاريخ ما يمر من الأيام، وبعد تفكير شديد أقمت على شاطئ البحر جذعا مربعا من الخشب، حفرت فيه ما يأتي:

"جئت هنا على هذه الجزيرة في ٣٠ سبتمبر سنة ١٦٥٨م."

ثم رأيت أن أحفر خطا صغيرا في كل يوم، فإذا انتهى الأسبوع حفرت خطين، فإذا انتهى الشهر حفرت مربعا صغيرا، وقد تمكنت بهذه الوسيلة من أن أعرف أيام الأسبوع والشهر والسنة، وأمنت من الخطأ والسهو.

٣-الأصدقاء الأوفياء

نسيت أن أقول للقارئ أن السفينة التي غرقت كان بها قطان وكلب، و قد قدر لها أن تكون قصتها مثل قصتي، فقد أحضرت القطين معي، وقفز الكلب من السفينة إلى البحر حتى وصل إلى الشاطئ سابحا، ولحق بي في اليوم التالي، وظل الكلب الوفي الأمين يخدمني عدة سنوات.

وكان حاد الذكاء مثل الخادم الذي، وكان في الحقيقة أفضل صديق وخادم لي، وقد أعجبت بذكائه ودقة ملاحظته، فقد رأيت: مثل الإنسان في كل شيء إلا في الكلام.

٤-أثاث البيت

قلت للقارئ أنني نقلت ذخائري وزادي إلى بيتي الجديد، وقد وضعتها في الأول غير منظمة، مبعثرة بأماكن كثيرة من بيتي، حتى صعب علي التحرك في البيت، فحفرت المغارة لتوسيعها، وعملت أياما حتى حققت غايتي، ثم احتجت أن أصنع أهم ما أحتاج إليه من أثاث للدار، فبدأت بصنع كرسي ومائدة، وقد جعلني العمل المتواصل بي مرانة نادرة سهلت علي أن أصنع كل ما أحتاج إليه من الاحتياجات المهمة.

وقد وفقت بصنع الكثير من الأثاث، دون الاستعانة إلا بقدموم ومسحج، فإذا احتجت أن أصنع لوحا، قطعت الشجرة بالقدموم، ورميت جذعها على الأرض، ثم نسقته من جانبه حتى يصل إلى سمكه إلى أريده، فإذا حصل ذلك لي هذبته بمسحجي.

وكان القدموم والمسحج أفضل مساعدين لي على إتمام الكثير من الأثاث، ولم يكن بوسعي أن أصنع أكثر من لوح واحد من كل شجرة كاملة، على أي رأيت أن من الحكمة أن الصبر، ولم أكن أمتلك الكثير من الصبر، وقد بدأت بعمل كرسي ومائدة، ثم صنعت ألواحا كثيرة ثم ثبت في الصخر مسامير حلزونية، لأعلق عليها بنادقي وثيابي.

٥- شحم الجداء

كان أشد ما أحتاج إليه، هو الشمع.

كان عدم وجود الشمع يجعلني ملازما للفراش كلما أتى الليل. وفكرت طويلا في حل لتلك المشكلة، فجمعت شحم الجداء التي كنت أذبحها، ثم جففته في أشعة الشمس، ووضعت وسط كل قطعة من الشحم قليلا أخرجه من الحبال التي عندي، ثم صنعت الشمع وبهذا ظفرت بالضوء ليلا، بعد أن قضيت ليالي مظلمة شديدة السواد.

٦- سنابل الشعير

لفت انتباهي ذات يوم من العمل المستمر، كيس الحبوب الذي أحضرته معي من السفينة، فرأيت الفأرة قد التهمت فلم تبقي منه غير القشور، فأفرغت الكيس منه عند سفح الصخرة القريبة من كهفي، لأنتفع بالكيس في قضاء حاجات أخرى، وبعد قليل، نزلت الأمطار، وروت الأرض، ثم نسيت كل ما حدث بعد ذلك. وما مر شهر علي تقريبا حتى فوجئت مما رأيت، عند سفح الصخرة من السوق النامية من الأرض.

وكنت أظنها أول الأمر نباتات مجهولة، ثم بدا لي خطأ ظني، بعد زمن قليل، حين رأيت اثنتي عشرة سنبله من الشعير الأخضر، وقد اشتدت دهشتي، وقتها، ولم أقصر أهتامي، وحصدتها في موسم الحصاد، وهو آخر شهر "ينية"، وقد جنيتها بعناية نادرة، فلم أهمل منها ولا حبة واحدة، ثم بذرتها، بعد ذلك، في موسم البذر، وحينها شعرت بأمل كبير في الحصول على الخبز بعد زمن قليل، وما مر علي أربع سنوات حتى أصبح عندي، من الشعير، ما يكفي لغذائي وزرع مزرعتي الجديدة.

٧- زلزال الجزيرة

وسأتذكر دائما اليوم السابع من أبريل عام ستين وستمائة وألف، فقد كان يوما به خبر مخيف، وقد أيقنت في ذلك اليوم أن آخرتي قربت، وأن مصرعي حان وقته، ورأيت كل ما أتمته من عمل يكاد ينهار أمامي، في لحظة واحدة.

كنت في ذلك اليوم منشغلا في أعمالي، داخل خيمتي، وبينما أنا كذلك إذ وجدت الأرض تهبط وتصعد، وشعرت باضطراب الصخور التي تحيط بي، وسمعت صوت فرقعة شديدة، ولم أعرف مصدر هذه الكوارث، وتملكني الذعر، وخفت أن أدفن حيا، فصعدت السلم وخرجت من خيمتي مسرعا، وأنا لا أكاد أصدق النجاة.

فرايت أرض الجزيرة تهتز اهتزازا عنيفا، فعرفت أنه الزلزال. وقد اهتزت الأرض تحت قدمي ثلاث مرات متتالية، وكان بين كل مرة منها ثماني دقائق.

وكانت تلك الهزات قوية وعنيفة إلى حد أن سقطت إحدى الصخور القريبة مني، ولم أكن أبعد عنها أكثر من متر ونصف متر، وسمعت صوتا لسقوطها هو كالرعد، وقد مسك الخوف على لساني، وكاد الدم يتجمد في عروقي من شدة الخوف.

من حسن حظي أن الأرض هدأت، وسكن اضطرابها بعد الثلاث هزات، فسكنت نفسي قليلا، ولكنني لم أتشجع على دخول خيمتي، فجلست على الأرض، وأنا لا أعرف ماذا أفعل؟

٨- بعد الزلزال

اسودت السماء، وملئت بالغيوم المخيفة فجأة، وهبت الريح الشديدة، وعنف البحر، وارتفعت أمواجه ارتفاعا شديدا، كانت تصل في ارتفاعها إلى مثل ارتفاع الجبال، وظلت العاصفة غاضبة ثلاث ساعات، ثم سكنت بعد ذلك، ونزلت الأمطار الغزيرة، ظننتها سيولا تأتي من السحب الكثيفة، وظلت السماء تمطر طوال الليل ووقتا من نهار اليوم التالي، وكان شغلي الوحيد، وقتها، التفكير

في تغيير هذا البيت، بعد حدوث الزلزال، فلم يكن في وسعي أن أبقى بعد أن كدت أن أموت فيه، وقلت لنفسي "ما دامت الجزيرة عرضة لمهالك الزلازل، فليس من الحكمة أن أستقر بهذه المغارة وأخذها مسكنا لي، والأفضل لي أن أختار مكانا صالحا في الفضاء، لأبني فيه مسكني، بعد أن أسوره بسور أمين".

وقد تأملت لمغادرة هذا الكهف الذي تعبت في حفره وإصلاحه وترتيب أمتعتي فيه ، حتى أصبح بيتا وحصنا منيعا من غارات الأعداء.

٩- أثر الزلزال

في صباح أول مايو، وقفلت أتأمل البحر، وأدقق النظر في أنحائه، فرأيت بقايا متناثرة من حطام السفينة ومن ألواحها، قذفها المد إلى الشاطئ، فصبرت عليها حتى يبعد عنها الماء، وقت الجزر، وقد فوجئت بأول الأمر مما شاهدت وعلمت أن هذا من أثر الزلزال الذي حطم السفينة تحطيمًا، ثم قذفت الأمواج بألواحها إلى الشاطئ، ورأيت أن من الحكمة أن استغل هذه الفرصة قبل أن أشغل نفسي ببناء مسكن جديد، وعملت على تقطعة ما تبقى من السفينة إلى قطع، فأنا محتاج إلى هذه البقايا المحطية، فواصلت العمل في تحقيق ما أرغب حتى منتصف شهر "بينة" وظفرت

بكثير من الألواح، كما ظفرت بأكثر من مائتي رطل من الحديد، وهكذا أصبح بإمكانني أن أبني زورقا كامل المعدات، وصنعت بعد ذلك شبكة أصطاد بها السمك.

وكنت أجفف ما يزيد على حاجتي منه في ضوء الشمس وحرارتها، ثم آكله في أوقات أخرى.

١٠- بين برائن الحمى

في اليوم السادس عشر من شهر "ينية" رأيت سلحفاة كبيرة تدب على الأرض، وكانت هذه أول سلحفاة أراها في الجزيرة، غير ما رأيته من أسراب كثيرة من السلاحف في الجهة الأخرى منها.

فذبحت تلك السلحفاة، فإذا بها ستون بيضة، وكان لحمها شهيا لذيذا، حتى خيل لي أنه أشهى طعام تذوقته في حياتي.

وفي اليوم الثامن عشر من شهر "ينية" نزلت أمطار غزيرة، وبرد الجو فجأة، فأصابني الحمى عشرة أيام كاملة، وكانت حرارتي تختلف بين ارتفاع وانخفاض، وقد اشتد بي العطش، ومنعني مرضي من السير وصولا للماء لأشرب.

وعند قروب شفائي، ذهبت لأملأ زجاجة كبيرة ماء، ووضعتها على المائدة القريبة من سريري.

لقد أضعفتني الحمى، فبقيت عشرة أيام أخرى وأنا غير قادر عن أداء أي عمل، فقضيت مدة النقاهة في راحة تامة، غير أن بها نزهاة قصيرة، حتى استرجعت صحتي كاملة في اليوم الخامس عشر من "ينية".

١١- ارتياد الجزيرة

الأفضل لي وقتها أن أذهب لأتعرف الجزيرة، وأتعرف كل ما فيها، فذهبت إلى الخليج الصغير، وهو أول مكان نزلت به في هذه الجزيرة، وسرت على شاطئ المخيف الذي يصب فيه ، وقطعت نحو ميلين في أرض مرتفعة، وقد أعجبت بالخضرة الجميلة المنبسطة التي يخترقها الغدير، ورأيت في الخضرة المرتفعة كثيرا من التبغ الأخضر ناميا على سوق مرتفعة، كما رأيت عيدان قصب السكر على غير ما يرام، فقد أهملت ولم يتعهدها أحد بعنايته، وفي اليوم التالي، أي في السادس عشر من ذلك الشهر، سرت في الطريق التي قطعتها بالأمس، وتوغلت في المروج، فرأيت وراءها كثيرا من أشجار الفاكهة وغيرها، ورأيت من الشامم والعنب الناضج الشهي، ما أدهشني وملاً قلبي سرارا، فأكلت من الفاكهة في غير إسراف حتى لا تسلمني التخمة إلى المرض، فاحتجت أن أجفف العنب حتى يصبح زيبيا، ومضى النهار كله وأنا جاد في

هذا العمل، ولم أشأ أن أعود إلى مسكني قبل أن يقبل الليل لبعده الشقة فتخيرت لنومي شجرة كثيفة الأغصان، ونمت بين أغصانها، كيف نمت أول ليلة حللت فيها هذه الجزيرة، وما زلت نائماً قرير العين هادئ البال حتى أقبل الصباح، فاستيقظت وواصلت السير نحو أربعة أميال، حتى بلغت غابة مزدهرة، تبدو لعين من يراها من بعيد كأنها حديقة.

وقد استرعى بصري ما رأيته من شجر البرتقال والليمون وما إلى ذلك من الفاكهة الناضجة الشهية.

ورأيت من أصالة الرأي أن أعد من هذه الخيرات الكثيرة، زادا أوفره لفصل الشتاء القريب، فجنيت كثيرا من العنب، وعلقته على غصون الشجر، ليحفظ في الشمس، وأخذت من البرتقال بمقدار ما أستطيع حمله، وسرت في طريقي عائداً إلى مسكني، وأنا معجب جدا بجمال هذا الوادي وما به من خيرات، واعتدال جوه، ومكانه الأمين، وعرفت أن المكان، الذي اختارته لأسكن به، هو أسوأ بقعة في تلك الجزيرة، لكنني لم أشأ أن أترك المكان، لقربه من البحر، وقد كنت أتوقع أن تمر بي سفينة، أو يأتي أحد من الناس فينقذني مما أنا فيه.

لم أشأ أن أبتعد عن هذه البقعة الجميلة، على رغم شدة إعجابي بها، فأنشأت فيها كوخاً ألبأ إليه وسط فضاء محاط بسياس طبيعي مزدوج من الأشجار، وكنت أمضي في هذا الحصن ليلتين أو ثلاثاً

متوالية، وقد صنعت سلما شبيها بالسلم الذي صنعته في المنزل الأول، وهكذا أصبح لي منزلان متباعدان، ألجأ إليهما في أي وقت أريد، وظللت كذلك إلى أول شهر "أغسطس".

١٢- فصل الأمطار

بدأ المطر ينزل بشدة في اليوم الرابع عشر من "أغسطس" إلى أن حل منتصف "أكتوبر" فبدأت تخف شدة المطر.

لحسن حظي، كنت قد نقلت إلى مسكني الأول كل ما جففته من العنب قبيل حلول فصل الأمطار، فلما اشتد المطر وصعب علي الخروج، وجدت ما يكفيني من الزاد، وكان المطر يجبرني على ملازمة مغارتي عدة أيام، وبعد قليل شعرت أن زادي يوشك أن ينتهي، فاضطرت إلى الخروج من بيتي مرتين، وقد اصطدت جديا وسلحفاة كبيرة، كان لحمهما شهيا.

كان فطوري عنقودا من العنب، وغدائي شواءة من جدي أو سلحفاة، وعشائي بيضتين أو ثلاثا.

ولما جاء اليوم المتمم للثلاثين من "سبتمبر" حضرت لي ذكريات مؤلمة، وقد جاءني عندما مر بخاطري أنني قد جئت هذه الجزيرة في مثل هذا اليوم من العام الماضي، وقد مر علي عام

بأكمله في هذا المنفي، وكنت شديد اليقظة في مراقبة الفصول وحساب أيام السنة، حتى لا أفاجأ بالأمطار، وقد أكسبني المراتة خبرة مفيدة بالزراعة، ونجحت أعمالي نجاحا باهرا.

١٣-الببغاء والجدي

وكنت مستمرا في العمل كل يوم، ولم أقصر في توفير الزاد عندي قبل حلول المطر، حتى لا يزعجني نقص الزاد، إذا حبسني المطر عن الخروج من البيت.

ورأيتني في حاجة إلا سلال أضع فيها الفاكهة والطعام. وقد وقفت إلى صنعها بعد تعب شديد، وكنت أكثر من المشي في تلك الجزيرة، وقد رأيت ذات يوم أرض واسعة، وكان اليوم صحوا، وقد رأيتها مرتفعة تمتد من الغرب إلى الجنوب الغربي، وهي تبعد عن جزيرتي نحو خمسة عشر ميلا، ولم أكن أعرف شيئا عنها، وقد هداني التفكير الطويل إلى أن هذه الأرض البعيدة تمتد إلى بلاد البرازيل، وشهدت، في أثناء تجوالي في تلك السهول الخضرة المزدهرة الجميلة، ذات الأشجار الكثيفة، مجموعة من الببغاوات. وقد وقفت أصطاد ببغاء صغيرة، ضربتها بعصاي، ثم أدفأتها بين ثيابي، حتى عادت إلى صوابها، وعدت بها إلى مسكني، فرأيت كلبى قد اصطاد جديا صغيرا، فأسرعت لإنقاذ الجدي من بين مخالبه.

فاهتمت بتربية الببغاء والجدى، فربطت الجدى إلى وتد،
وصنعت للبغاء قفصا، ولم يمر زمن قليل عليهما، حتى ارتاحا إلى
صحبتى، وكان الجدى يتبعنى حيث سرت، ولا يفارقنى.
وهكذا سعدت فى هذه الجزيرة النائبة، بصحبة هذين الرفيقين
الجددين، كما سعدت بصحبة كلبى وقطتى من قبل.

الفصل السادس

زمن العزلة

١-أعداء الزراعة

حل اليوم المتمم للثلاثين من "سبتمبر" وهو الذكرى الثانية لليوم المشؤوم الذي حلت فيه هذه الجزيرة الموحشة، حيث كتب علي أن أترك العالم وأستسلم للعزلة، على أنني وجدت في العمل راحة عظيمة، وظفرت بجدي وصبري بنتائج باهرة، فجنيت في آخر الخريف محصولا وافرا من الحبوب، ولكن فرحي به لم يدم طويلا، فقد نغصه علي عبث الجداء به، وكنت أرى بعض حيوان الجزيرة، وهو أشبه بالأرنب الجبلي، يعبث بزراعي، وقد استطاب القمح، وهو على سوقه، وأغرته لذته بإفساد ما زرعت منه، فلا بد من تسوير الحقل بسياج من الأعشاب المرتفعة، وقد جهدي ذلك ثلاثة أسابيع، ولم أبذل جهدا في مطاردة هذه الأعداء الخبيثة نهارا، فإذا جاء الليل ربطت الكلب إلى حبل طويل مثبت في باب الحقل، فينبح طول الليل حتى يزعجها، فلم تلبث أن هجرت البقعة التي كنت فيها، ولم تعد تقرب منها بعد ذلك، واسترحت من عبث هذه الأعداء، حتى حان وقت الحصاد فظهر لي أعداء جدد، إذ

أقبلت الطيور على سنابل الشعير تأكلها، واستطعمت هذا الطعام الشهي، على أنني لم أياس من النجاح في مطاردتها، فظللت أحرس حقلي ليل نهار، وأصطاد ببندقيتي كل طائر يقرب من حقلي، حتى خافت الطيور، فهجرت الحقل وما حوله، ولم تجرؤ على القرب من هذه البقعة، وهكذا تم لي الظفر، وارتاح بالي، ونضج الزرع في الأيام الأخيرة من "ديسمبر".

٢- أدوات الزارع

وقد اشتدت حيرتي وارتباكي حين هممت بلم المحصول، وليس عندي من الأدوات ما يساعدني على ذلك، واحتجت أن أصنع منجلا، وهو آلة من الحديد منحنية يقطع بها الزرع.

صنعته من سيف وغصن شجري، قطعت السنابل، ثم فركتها بيدي وعزمت على بذرها جميعا في الموسم القابل، وهنا تمثل لي مقدار ما يعانیه الإنسان إذا حاول، بمفرده، أن يظفر برغيف خبز واحد، فقد كنت بحاجة إلى محراث وفأس وما غير ذلك من أدوات الزراعة. فإذا تم الحصاد اشتدت حاجتي إلى طاحونة ومنخل وفرن، وما إلى ذلك من الملح وغيره، ولكن الجد والصبر أهم شيء لأتغلب على كل عقبة، وقد تم لي كل ما أردت بفضل العزيمة على العمل.

لأنني كنت لا أضيع وقتي، فإذا نزلت الأمطار لبيتي، وأقبلت على
بيغائي أعلمها النطق، حتى وصلت إلى نتائج باهرة.

٣- صناعة الفخار

ولما كانت الحاجة أم الاختراع، اضطررت إلى مزاوله صناعة الفخار،
ولم يكن لي بها عهد من قبل، وقد نجحت في ذلك بعد مرانته
طويلة، وتجارب كثيرة، فصنعت كثيرا من الجرار والأواني والقصاص
والصحاف، وما زلت أتعلم هذه الصناعة حتى بلغت حدا جديرا
بالتهنئة.

٤- الزورق الكبير

برغم هذه الأعمال الكثيرة المرهقة لم تنسني رغبتني في التعرف
على الأرض البعيدة التي رأيتها، من قبل، تجاه الجزيرة، فقد كنت
أمل أن أجد فيها وسيلة للعودة إلى "لندن".
فافتكرت زورق السفينة الذي انقلب برفاقي، فرأيته كما هو على

مقربة من الشاطئ مقلوبا، وقد غاص جزء منه في رمال الشاطئ، فحاولت أن أرفعه من مكانه، فبذلت جهدي وكن بلا نفع. فذهبت إلى جذوع الأشجار، وعملت ما بوسعي وقتا طويلا، حتى صنعت زورقا كبيرا يسع ستة وعشرين راكبا. ولكنني عجزت أن أنقله للبحر، فأخذت أفكر وأفكر ولكن بلا نفع، فمن المستحيل أن أزحزحه عن مكانه، كما هو مستحيل أن أزحزح زورق السفينة من قبل.

5- الزورق الجديد

مر العام الرابع، فاستقرت أموري، وقد صنعت ما صنعت، غطاء للرأس كبير من فراء الجداء التي اصطادتها، كما صنعت منها جلبابا لي وسروالا وبعض الثياب، لتحفظني من برد الشتاء، وصنعت مظلة لتحفظني من حر الصيف، فالجزيرة واقعة بالقرب من خط الاستواء، وكان حرها لا يحتمل، فسهلت علي السير بلا تعب، وحفظتني من المطر والشمس، وكان شغلي الشاغل أن أصنع زورقا أصغر من الزورق الذي صنعته، ولن ينقضي العام الخامس حتى صنعته، ونجحت في ذلك نجاحا باهرا، فجعلت له شراعا، وثبت به مظلة كبيرة، وعزمت على التجوال حول الجزيرة، لأتعرّف مدى هذه المملكة التي كتب علي القدر أن أكون مليكها،

أو على الأصح، مدى هذا السجن الذي سجننتني به المقادير
وجعلتني ملازمه.

وهكذا أعددت الطعام والماء للرحلة، ولم أنس سلاحني لأدافع به
عن نفسي وقت الخطر، وعقدت العزم على التجوال حول الجزيرة،
بعد تردد طويل.

٦- الطواف حول الجزيرة

بدأت هذه الرحلة في اليوم السادس من "نوفمبر" بعد مرور ستة
أعوام في مملكتي، أو في سجنني لأكون صادقاً، وكانت هذه الرحلة
أطول مما قدرت، وقد تعرضت، أثناء رحلتي، لكثير من الأخطار،
لكن الله وفقني، حتى عدت إلى بيتي الريفي، ذات مساء، وقد
جهدي التعب، فنمت نوما عميقاً.

٧- مفاجأة البغاء

دهشت جدا حين سمعت صوتا طرق أذني يناديني باسمي، ويقول بوضوح: "روبسنن! ماذا يا روبسنن! أنت يا روبسنن! مسكين أنت يا روبسنن! أين أنت؟ وأين كنت؟ وكيف حالك روبسنن كروزو؟". فتخيلت أني أحلم لكن الصوت عاد يقول: "روبسنن كروزو! ماذا يا روبسنن!".

فاستيقظت من نومي العميق، وتملكني الذعر والدهشة، وما تبينت حقيقة الأمر حتى عدت مطمئنا، عندما علمت أن ببغائي هي صاحبة الصوت، فقد رأيتها واقفة على السياج، فعجبت من اهتدائها إلى هذا البيت، وقد تركتها في الكهف، وعجبت من تخيرها هذا المكان، ولم أعرف حل هذا اللغز، ثم ناديتها باسمها، فأسرعت إلى ووقفت على إبهامي، وهي تكرر سؤالها مسرورة بلقائي: "أين كنت يا روبسنن كروزو؟ اين كنت يا مسكين؟".

فأخذتها معي إلى الكهف، حيث عشت نحو سنة في عزلة السجين، ولم يكن ينغص على سعادتي في هذه الجزيرة إلا أنها خالية من الناس والنبات.

٨-صيد المعيز

وقد برعت في كثير من الصناعات براعة نادرة، ونجحت في صناعة الفخار وعمل السلال، وكنت أصطاد المعيز والسلاحف كلما احتجت إلى ذلك، فرأيت البارود الذي هو عندي قد نقص، فخفت أن ينفد، وبذلك أعجز عن صيد أي حيوان، فلا بد من تغيير خطتي هذه، فصنعت شباكا لصيد المعيز وهي حية، ولم تكن شباكي سالحة لصيدها، فقد أفلتت منها المعيز التي وقعت فيها، لضعف حبالها، فلجأت إلى طريقة أخرى، وهي أني حفرت حفرا عميقة في الجهات التي اعتادت المعيز أن تكون بها، وغطيت الحفرة بشباك من شجر الصفصاف، وألقيت عليها طبقة من التراب، وغرست فيها سنابل الأرز والشعير، وقد فشلت هذه الطريقة كما فشلت سابقتها من قبل، قد كانت المعيز تبعد منها، ثم لم تلبث أن خدعتها بعد قليل، فسقط في إحدى الحفر تيسا، لم أفلح في تهدأت ثورته وهياجه، فاضطرت إلى إطلاقه، ولو أنني تركته في الحفرة أياما حتى يدوخه الجوع فيهدأ وأعرف أن أسايسه، ولكن هذه الفكرة لم تمر بخاطري إلا بعد فوات الأوان.

ثم وقع في حفرتين أخريين، ماعزتان صغيرتان وجدي صغير، فأخذتها جميعها إلى مسكني، وقد رفضت أن تأكل شيئا، ثم اضطرت لأكل ما قدمته لها من حبوب بعدما شعرت بالجوع.

وعملت ما بوسعي في تهيئة مرعى لهم، وسورته بسياج متين من الأعشاب الكثيفة، حتى لا تهرب.

وظللت أتعهد لها بأحسن ألوان الطعام الحبيب إلى نفسها من سنابل الشعير وحبوب الأرز حتى تعودت علي، فككت رباطها فلم تهرب مني، وظلت تتبعني بأي مكان أذهب إليه، وتفرح بقدومي كلما رأته، وبعد عام ونصف أصبح لدي قطع لا يقل عن اثني عشر جديا وعنزا، ثم تضاعف العدد على مر الأيام، وأصبحت حياتي رغدا، وعيشتي ناعمة هنيئة، فقد كانت تعطيني مقادير كبيرة من اللبن، فلم أضع هذه الفرصة، وعزمت على صنع الجبن والزبد من ألبانها، ولم يكن لي بذلك عهد من قبل.

ما زلت أدرب نفسي على هذا العمل، حتى وقفت إليه، ونجحت في تحقيقه أكبر نجاح.

٩- رفاق "روبسن"

كانت مائدتي كل يوم مملوءة بمختلف أنواع الأكل، وقد نعمت برفاقي الخلاء، فالبيغاء تجالسنني وتسليني بحدِيثها، والكلب يجلس إلى يميني، على المائدة، ويجلس القطان إلى يساري متقابلين، وقد علم القارئ فيما سبق أنني أحضرت معي قطين من السفينة، فليعلم القارئ الآن أنهما ماتا منذ زمن طويل، وهؤلاء من نسلهما،

ولم يخلص لي منها غير هذين القطين، أما إخوتهما فكانت شريرة مأكرة، تسرق كل ما تجده في طريقها من الطعام، فطردتها من بيتي شر طردة، بعد أن آذيتها، فهربت إلى الغابة، ولم تلبث إلا قليلا حتى عادت إلى طبعها الوحشي الشرس.

١٠-زي "روبسن"

لعل القارئ قد اشتاق إلى أن يعرف الزي الذي اخترته لنفسي كلما أردت أن أطوف في مملكتي الصغيرة، فالأمثل له ذلك الزي العجيب : كانت قبعتي مرتفعة، وقد صنعتها من جلد عنز وكان طرفها على قفائي لتحميني من وهج الشمس.

وكان سروالي مصنوعا من جلد تيس هرم والشعر يتدلى منه إلى نصف ساقي.

وكنت أضع في حزامي المصنوع من جلد المعيز منشارا وقدوما، وأحمل على كتفي بندقية، وأحمل على ظهري سلة كبيرة، فيها طعامي وشرايبي وفي يدي مظلتي، لتحفظني من حر الشمس، وهطول الأمطار.

الفصل السابع

جمعة

١- آثار أقدام

رأيت ذات يوم آثار أقدام واضحة على الرمل، فتملكني الخوف وخيل لي أن صاعقة انقضت علي، فتلفت حولي خائفا، وترقبت فلم أر إنسانا ولم أسمع صوتا.

فصعدت إلى هضبة مرتفعة، وترقبت كل الأماكن، فلم أجد شيئا يدل على أن هذا المكان به أحدا، وقد كنت أظني واهما فيما رأيت، ولكن آثار القدم وهي عارية، لم تدع لي مجالا للشك، فقد رأيت الأصابع والكعب مرسومة على الرمل، فلم يبق عندي شك، في حقيقة ما رأيت، فأسرعت إلى كهفي، وقد خيل لي أن جيشا يلاحقني، وغمت مهموما، ولم أذق طعم النوم حتى الفجر، من شدة الخوف.

فلزمت بيتي ثلاثة أيام كاملة، ثم اضطرني الجوع إلى الخروج إلى بيتي الآخر الذي بنيته بين أشجار العنب.

٢- الحيلة

وهكذا تملكنتي الدهشة والحيرة فقد مر علي في هذه الجزيرة خمسة عشر عاما، لم أشهد فيها أحدا، على الرغم من رؤيتي أثر القدم.

ثم قلت في نفسي: "لعل بعض سكان تلك القارة المجاورة قد أتوا إلى جزيرتي وسيتركونها بعد أن يجدوها غير صالحة لهم." فرأيت أن أحذر من المفاجآت، حتى لا يفاجئني الأعداء، فزدت في تحصين مغارتي، كما حصنت بيتي الآخر، وكنت لا أدخل البيت إلا مستعينا بسلمين، فإذا صعدت الأول رفعت السلم، ثم وضعته فوق صخرة نائية لأصل إلى حصني ثم رفعت السلم مرة أخرى، ليصعب على أي أحد أن يصعد إلي.

ولم يمض عامان بعد ذلك حتى أصبحت مستعدا للنجاة من كل خطر.

٣- آثار الغيلان

ذات يوم كنت أتجول لأتعرف الجزيرة على عادي، وأتعرف الجهات البعيدة التي لم أعرفها من قبل، فرأيت آثار المتوحشين ما فزعني، وملاً قلبي خوفاً، فقد وجدت أن هؤلاء المتوحشين الهمج يأتون بالأسرى، بعد أن يظفروا بهم في معاركهم، إلى الشاطئ الجنوبي الغربي من هذه الجزيرة، ثم يشوون لحومهم على النار ويأكلونها، وقد رأيت كثيراً من الجماجم والأشلاء مبعثرة في هذا المكان، على مكان قريب من الرماد الكثير الذي تركته النار.

ورجعت إلى مسكني حزينا شديد الهم مما رأيت، وتبين لي وقتها أن آثار الأقدام البشرية تلك التي رأيتها منذ عامين، هي آثار أقدام هؤلاء الغيلان، فامطأنت نفسي قليلا، بعد أن عرفت هذا السر الذي جهلته مدى عامين، وكان يخيفني ويفزعني.

وعلمت أن هؤلاء الغيلان لا يبحثون عن شيء في هذه الجزيرة، وأنهم لا يأتون ليقوموا مآذبهم فيها، كلما ظفروا بأسراهم في الحروب.

ولقد مر بي ثمانية عشر عاما، وأنا لم أر أي أحد منهم، فلما رأيت ما رأيت، تمسكت بالحذر والحيلة، وأعددت العدة لأي مفاجأة من الأعداء، حتى لا تفاجئني الحوادث فجأة.

٤-مأدبة الغيلان

وفي شهر "ديسمبر" كان قد مر علي ثلاثة وعشرون عاما في هذه الجزيرة، لم أخرج من بيتي للحصاد في فجر هذا اليوم حتى رأيت نورا بالقرب من الشاطئ، على بعد نصف ميل من بيتي، ولم أكن رأيت هؤلاء الغيلان وهم يتجولون في هذا المكان من قبل، فدهشت، وتملكني الرعب والفرع، ورجعت إلى بيتي مسرعا، ورفعته السلم، واستعددت للدفاع عن نفسي، وظللت أترقب العدو ساعتين، ثم لم أستحمل أن أصبر على البقاء أكثر من ذلك، فصعدت حتى وصلت أعلى الصخرة، بعد أن وضعت عليها السلمين، وانبطحت على الأرض، ونظرت إليهم بمنظاري، فرأيت تسعة من هؤلاء الغيلان جالسين، في شكل حلقة، حول نار موقدة، ليهيئوا طعامهم من الأسرى الذين أتوا بهم إلى هذه الجزيرة، وقد جاء الغيلان على زورقين وشدهما إلى الشاطئ، وانتظروا الجزر حتى يعودوا أدراجهم، فعلمت أنهم لا يبحرون إلا في أوقات الجزر، فاطمأنت نفسي، وأصبحت أمشي في الجزيرة آمنا، في أوقات المد، فإذا انحسر ماء البحر أخذت حذري منهم، واستعددت للطوارئ والمفاجآت، ولم يبدأ الجزر حتى ركبوا الزورقين، بعد أن رقصوا طويلا، وظلوا يجدفون بقوة حتى اختفوا عن ناظري، فأسرعت إلى المكان الذي كان يجلس فيه هؤلاء الغيلان، فرأيت من أثر المأدبة

التي أقاموها، ما روعني، فرأيت العظام البشرية متناثرة حول النار، فتألمت نفسي، واشتد غيظي من هذه القسوة، ونويت على قتل أول من أقبله من هؤلاء الغيلان.

٥-نجاه الأسير

وظللت مصرا على محاربة الغيلان مدة طويلة، ومضى على ذلك ثمانية عشر شهرا، ولم أعثر على أثر لهؤلاء الهمج، وفي صباح يوم رأيت على الشاطئ ستة زوارق، فعلمت أن عدد القادمين لا يقل عن ثلاثين، فرجعت إلى مسكني، ورأيتهم منظاري، فكان عددهم كما توقعت من قبل، واستعددت لمقابلتهم، كلفني ذلك ما كلفني، ورأيتهم يرقصون وقد استولى عليهم المرح، ثم أحضروا أسيرين، فقتلوا أحدهما، وانتهاز الثاني فرصة اشتغالهم بالأول ففر هاربا، وظل يجري بأقصى سرعته، وتبعه ثلاثة من الغيلان، ولكنهم لم يستطيعوا اللحاق به.

ثم اعترضه خليج صغير، فرمى بنفسه فيه، وسبح بقوة جبارة حتى وصل الشاطئ الآخر، ولم يهتم بارتفاع المد وشدة الأمواج، وتعقبه اثنان، وعاد الثالث إلى رفاقه.

فرأيتها فرصة لأنقذ هذا الأسير، لأنني كنت في أشد الحاجة إلى خادم يساعدني في تلك الجزيرة البعيدة الخالية من الناس.

فأسرعت إليهم، وبيدي بندقية، وأشرت إلى الأسير أن يقف، فلم تطمئن نفسه إلي، وخشى أن يقرب مني، وحسبني من أعدائه، ثم فاجأت أحد المتوحشين اللذين يتبعانه، فضربته بقبضة بندقيتي ضربة شديدة، فخر قتيلا على الأرض، وحاول الثاني أن يفوق إلى سهامه، فضربته برصاصة فوق قتيلا.

فوقف الأسير الهارب وقد تملكه الذعر حين سمع دوي الرصاص، ولم يكن يعرف هذا من قبل، فأشرت إليه أن يقرب مني فتردد في إطاعة أمري، فأشرت إليه مرة ثانية، فاشتد فزعه وظل يتقدم بخطوات قليلة، ثم يقف مترددا وقد أذهله الرعب، فأشرت إليه إشارة ثالثة، وأنا أحاول بكامل طاقتي أن أطمئنه وأهدئ من هلعه، فتقدم حتى قرب مني، وقعد أمامي متوسلا خائفا، فأشرت له فانحنى يقبل قدمي، فتلطفت له متوددا حتى أذهبت عنه الخوف.

ثم صحبته إلى مغارتي، وأطعمته وسقيته، وأشرت إلى كومة من القش ليتخذها سريرا له، فذهب لينام.

٦- جمعة

وهكذا مر زمن الوحدة، وأصبح لي منذ ذلك اليوم، رفيق أمين شجاع، في أول مرحلة شبابه، لم يزد سنه على خمسة وعشرين عاما، وكان هذا الخادم مثالا للحبوية والذكاء.

ولم ينم نصف ساعة حتى استيقظ، وخرج من الكهف مسرعا، إلى أن وصل إلي، وكنت أحلب عنزا، فارتقى على قدمي، ورفعها فوق رأسه، ليفهمني أنه تحت أمري ورهن إشارتي، فابتسمت له وأقبلت عليه حتى سكن إلي، وفرح فرحا كبيرا، وذهب ما كان يقلقه.

ثم عملت ما بوسعي في تعليمه لغتي، ليسهل علينا التفاهم معا، وقد سميته "جمعة" لأنني أنقذته من الهلاك المحقق في يوم الجمعة، فهو أول يوم عرفته فيه، ثم أشرت إليه أن يسميني "السيد" وعلمته لفظتي "نعم ولا"، ثم قدمت له جرة وملأتها لبنا، وغمست فيها قطعة من الخبز وأكلت وأشرت إليه أن يأكل مثلي، فلم يتردد في تقليد ما شاهده مني.

فاستطعم الطعام فعجبه طعمه، وبدا على وجهه السرور، ثم صنعت له ثيابا مثل ثيابي، وقبعة من جلد أرنب، وصنعت له في اليوم التالي، كوخا بالقرب من كهفي لينام فيه، لأنني كنت أخاف أن يرجع لوحشيته فيقتلني وأنا نائم، ويأكلني.

وبعد ذلك تأكدت من خلال عشرتي به من إخلاصه، فلم أتوخ الحذر منه بعدها، فوفاؤه لي كوفاء الولد لأبيه، فكان مستعداً أن يفديني بروحه، ومرت أيام سعيدة، وكنت ذات يوم سائراً مع "جمعة" في إحدى الطرق، فأطلقت رصاصة على أحد الجداء، فصرعته، وما رأني قتلت الجدي على مسافة بعيدة منه، حتى اشتد خوفه، وظل يرتعش مما رأى وسمع، فقد أخافه صوت الرصاص، وظل يبحث في ثيابه خائفاً أن تكون الرصاصة قد أصابته هو بغير أن يشعر، فلما تأكد أنه بخير ارتمى على قدمي يتوسل ألا أقتله، فطمأنته مرة أخرى، ولأطفته، وأشارت إليه أن يذهب ويحضر الجدي، ثم أريته بندقيتي، وصوبتها إلى ببغاء قاعدة على شجرة قريبة، وأخبرته أنني أريد صيد تلك الببغاء، وما أطلقت عليها الرصاصة حتى اشتد خوفه، وعجب مما فعلت أشد العجب، وتملكته الحيرة، وأصبح يرتعش خوفاً كلما رأى البندقية، وكان في بعض الأيام يكلمها مستعظفاً ضارعاً إليها ألا تقتله، كما قتلت غيره من قبل، ولما أقبل المساء سلخت الجدي، وشويته وأطعمت جمعة من لحمه، فعجبه لحم الجدي وأصبح من ذلك اليوم يكره اللحم البشري، ولا يستطيعه.

٧- نشاط «جمعة»

وفي الأيام التالية تدرّب جمعة على الحرث والبذر، ووضع الشعير في السلال، وطحنه وعجنه وخبزه، وبعد زمن قصير أصبح قادراً على صنع كل شيء درّبته عليه بطريقة سهلة.

فأصبح لي خير مساعد، بفضل ما وهبه الله من الذكاء والنشاط والإخلاص، وشعرت بالسعادة تغمرني، منذ وجدت هذا المساعد الذي، وقد أصبح يخلص لي بمقدار ما أخلص له، واشتدت روابط المحبة بيننا، وعرف أسماء الأشياء التي نحتاج إليها، وعرف تخطيط هذه الجزيرة وطرقها، فأراحني من التعب، ووفر لي أسباب الراحة، وكان لي نعم الرفيق.

٨- وطن «جمعة»

وفي يوم جرنا الحديث إلى الكلام عن الوطن، فسألته عن طريق الوصول إلى وطنه، وهل يأمن راكب البحر على نفسه في أثناء هذه الطريق؟ فأثبت أن الوصول إلى وطنه أمر سهل، وظل يحدثني عن وطنه وهو معجب مفتون به، وقد أخبرني أن في الجهة الغربية من بلادهم قوما بيض الوجوه، فأدرّكت أنه يقصد بذلك قوما من

الإسبانيين، وأن طريق الذهاب إليهم سهل، فشعرت بأمل كبير، وتبينت أن نجاتي من هذه الجزيرة قريب، ونويت إعداد المعدات للسفر إلى هؤلاء القوم، حيث أجد الوسائل سهلة للرجوع إلى وطني، ثم حدثني أن زورقا كبيرا قد انقلب براكبيه، منذ أعوام، وكانوا سبعة عشر رجلا من البيض أمثالي، وقد نجوا من الغرق، وأقاموا، وما زالوا يقيمون بين عشيرته وقومه.

فسألته "وكيف وثقوا في عشيرتك وقومك، ألم يأكلوهم؟".

فقال لي "بل أصبحوا أخوة لنا، فإن قومي لا يأكلون إلا أسراهم في الحرب، أما الأصدقاء فلا يلحقوهم بسوء".

٩- ذكريات الوطن

مضى وقت على هذا الحديث، ثم صعدنا ذات يوم قمة جبل عال، وكان الجو جميلا، فظهرت القارة البعيدة، فظل جمعة ينظر إلى وطنه حتى فرح فرحا شديدا، فظل يقفز من الفرحة، ويصيح بأعلى صوته: "وافرحته! واسعداه! أرى بلادي! أرى مكاني"، وامتلاً وجهه فرحا وسرورا، وزاد حنينه لوطنه، فسألته: "أتحب أن تعود لوطنك؟"، فأجابني متشوقا: "ليت هذه الأمنية تتحقق، سيدي!"، فقلت له: "وماذا تفعل في بلادك؟ أتحب أن ترجع إلى وحشيتك، وتعود إلى طبيعتك الأولى، فتصبح غولا تأكل لحوم

البشر؟"، فقال لي في غير تردد: "لا لا.. إن "جمعة" لن يرجع غولا كما كان، وسيحكي على قومه كيف استطعم الخبز واللبن ولحم الأغنام، وغير ذلك من الطعام اللذيذ، أما لحم الإنسان فقد أصبح "جمعة" يكرهه ولا يستحمل أن يفكر في أكله."

فقلت له: "كلا، لا يأكلونني، بل يتعلمون مني كيف ينظمون حياتهم، وكيف استطعمون أطيب الأطعمة."

فسألته: "أتحب أن تعود إلى بلادك الآن؟" فقال لي مبتسما: "ليس في قدرتي أن أقطع هذه المسافة الطويلة سابحا".

فوعده بإعداد زورق يوصله إلى بلده، فقال لي "حبذا ذلك لو تم، على أن أكون رفيقك في هذه الرحلة، وسترى كيف يغمرك أهل وطني بالحب، ولن يفكر أحد في أن يأكلك، عندما أخبرهم بأنك أنقذت حياتي من الموت."

وما زال يحبب إلي الذهاب معه إلى وطنه، ويحكي لي كيف أكرموا جماعة البيض الذين وصلوا منذ زمن طويل، وكيف ارتاحوا لهم وإلى عشرتهم، حتى هيئت نفسي واستعددت لهذه الرحلة، فربما أتمكن من العودة بعد ذلك إلى وطني.

١٠- المركب الشراعي

اشتدت رغبتني في تحقيق هذا الحلم الجميل، فذهبت مع "جمعة" إلى المكان الذي وضعت فيه زورقي، ثم ركبناه معا، فرأيت "جمعة" أمهر مني وأقدر على متابعة السير، فقلت له "هل تستطيع الآن أن تذهب إلى بلادك؟".

فقال "لن يطيق هذ الزورق الصغير تلك الرحلة الطويلة".

فقلت له "علينا أن نضع زورقا أكبر منه لتركبه إلى وطنك".

فحنى رأسه إلى الأرض، وقال لي متألما حزينا "ما الذي أغضب سيدي علي؟ وسيدي يحاول ترك خادمه جمعة؟".

فقلت له "ألا تتمنى الرجوع إلى وطنك؟"

فقال "نعم، نعم، أتمنى ذلك من كل قلبي، مع مرافقتك العودة إلى وطني، أما الرجوع وحدي وترك مرافقتك، فلا طريق إلى ذلك، فلا أقدر تحمل بعدك، بعد أن امتلأ قلبي بحبك، أيها السيد الكريم، الذي عاملني بلطفه، وغمرني بجمائله"

فتظاهرت بتمسكي بقراري، لأمتحن مدى حبه لي، فلما رأني جادا في رفضي، غاب عني قليلا، ثم عاد إلي وفي يده قدوم، وقال لي، وقد تملكه اليأس والحزن "بربك أقتلني بهذه القدوم، وأرحني من الحياة، ما دمت مصرا على إرسال جمعة إلى وطنه"

فلم أتردد في إظهار موافقتي على السفر معه، بعد أن أمتحنت إخلاصه، وعرفت مدى حبه لي، ووعدته بتحقيق أمنيته في مرافقته إلى وطنه، ولم نضع وقتنا بعد أن عزمنا على القيام بهذه الرحلة، فذهبنا إلى شجرة كبيرة فقطعناها، واستمررنا في العمل حتى صنعنا زورقا كبيرا في خلال شهر كامل، وبعد خمسة عشر يوما، استطعنا أن ننزل الزورق في البحر، وقد تعبنا في ذلك تعباً لا يوصف، ولم يمر علينا شهران بعد هذا، حتى انتهينا من صنع الشراع والسارية، كما أنجزنا صنع الدفة الشراعية، حتى أتقنته وأحسن صنعها، ولم يكن يعرف جمعة بمثل هذا المركب الشراعي، ولم ير له مثيلاً طول عمره، فقد كان قومه لا يعرفون إلا الجدف وحده، أما استخدام الشراع والدفة، فذلك لم يعرفوه، وقد أكسبته المراتبة قدرة عجيبة على تسيير مركبنا الشراعي، وأصبح بعد زمن قليل، ربانا ماهرا. وهكذا تم لنا إعداد العدة للسفر إلى وطن جمعة، ولم ينقصنا شيء من المعدات.

١١- حرب الأعداء

مضت ثلاث سنوات بعد ذلك، وقد أصبحت الجزيرة وقتها جنة خضرة، بعد أن كانت منفي مخيفا، فقد آنسني جمعة بعد وحشة، وتغلب إخلاصه وحبه على كل عقبة اعترضتنا في حياتنا، وجاء

العام السادس والعشرون، وأنا أترقب البعد عن هذه الجزيرة، فلما أتى الشتاء، وضعنا الزورق في مكان أمين، حتى مر "نوفمبر" و "ديسمبر" ثم أخذنا نهيتئ الأسباب، ونستكمل معدات السفر إلى وطن "جمعة".

في صباح يوم من الأيام ونحن جادون، وقد خرج جمعة لصيد السلاحف كعادته، إذ عاد مسرعا إلي، وهو يرتعش من شدة الخوف، ويصيح قائلا "يا للهول ، يا سيدي". فقلت له "أي هول تقصد؟".

فقال "ثلاثة زوارق تقرب منا، قادمة إلينا".

فأخذت أطمئننه، وهو لا يكاد يصغي لما أقول، فقد كان متأكدا أن الأعداء لم يعودوا إلى الجزيرة إلا لبيحثوا عنه، ويمزقوا جسمه ويشوووه على النار، فقلت له "تشجع فلن يفيدك الهلع، ولن يبقى الأعداء على أحد منا إذا ظفروا به، وليس لنا إلا أن نستعد لقتالهم، وسأبذل ما بوسعي من أجلك، فلا تخالف لي أمرا، وسترى كيف سننتصر عليهم برصاصنا".

بعدهما سمعني، عادت إليه شجاعته، فاستجمع قوته على أن يتشجع في قتالهم، حتى ننتصر عليهم أن نموت كريمين.

واستعددنا لمحاربتهم، فصعدت قمة الجبل، فرأيت من خلاص منظاري، واحدا وعشرين رجلا جالسين حول النار، فنزلت إلى سفح الجبل، وأرسلت جمعة ليتعرف ما يصنعون، فعاد بعد قليل،

وأخبرني أنهم يشوون أحد الأسرى على النار، ليأكلوا لحمه، فذهبت إلى الغابة ومعى جمعة، واختفينا بين أشجارها الكثيفة، حتى أصبحنا على مسافة قريبة من الأعداء، فرأينا رجلا أبيض الوجه، ملتجيا، مشدود الوثاق، مطروحا على الرمل، فصبرت عليهم، حتى أخذوا يحلون وثاقه، أمرت جمعة، أن يطلق الرصاص معى في وقت واحد، وكانت مفاجأة عجيبة، فقد قتل جمعة، وحده، اثنين منهم وجرح ثلاثة، وقتلت رجلا واحدا وجرح اثنين.

وما سمع الأعداء صوت الرصاص، ورأوا ما حل بأصحابهم من الهلاك والأذى، حتى تملكهم الخوف وهربوا، وهم لا يكدون يصدقون النجاة، وركبوا زورقين ليهربوا إلى بلادهم، من هذه الصواعق التي لم يروا مثلها شبيها، فاقتربت من الرجل الأبيض وحييته، فوجدته أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، ففككت وثاقه وسقيته وأطعمته، حتى عاد صحيحا، وأفاق من إغماءته، فشكر لما فعلته، وقد علمت أنه إسباني الأصل، وأن سوء حظه أوقعه أسيرا في تلك البلاد.

١٢- أبو "جمعة"

ورأى جمعة زورقا تركه الأعداء، فاقترح علي أن نركبه لنطاردهم، ونملاً قلوبهم رعباً وخوفاً، فأعجبني اقتراحه، وما نصلنا إلى الزورق، حتى رأينا فيه أسيراً ثالثاً، ففككت وثاقه، وحاولت أن أنهضه على قدميه، فوجدته لا يتماسك، من شدة الضعف والخوف، ولم ير جمعة هذا الأسير حتى ارتقى عليه يقبله ويحضنه، وقد أذهله الفرح حتى كاد يسلمه إلى الجنون، فظل يبكي ويضحك ويقفز ويرقص ويفرح يديه، ويعض أنامله ويلطم وجهه ويغني، وأنا أحاول أن أفهم سر ما يحدث، وهو لا يصغي إلي، ثم هدأ قليلاً، والتفت إلي قائلاً "إن هذا الأسير هو أبي، وقد أنقذه الله على يديك، فكيف لا يتملكني الفرح!" فتركته في فرحته، وأعجبت بهذا الحب الأسري، وقد أقبل جمعة على أبيه يدفئه في حنان الولد البار، ويفرك له ساقيه اللتين أذاهما الحبل، ويسقيه تاره، ويطعمه تاره أخرى، حتى أعاد إليه قواه.

فأمرت جمعة أن يهتم بالرجل الإسباني، كما اهتم بأبيه، فلم يتردد في إطاعة أمري، ثم حملنا الإسباني وأبا جمعة على لوح من الخشب لعجزهما عن السير، حتى وضعناهما في خيمة أقمناها بالقرب من الحصن، وأعدنا لكل منهما فراشا من القش، وكان جمعة خير مترجم ينقل ما يقوله أبوه، والإسباني الذي أتقن لغة

أعدائه، ولطول عشرته وإقامته بينهم، ثم أمرت جمعة أن يدفن القتلى، حتى لا تفسد جثثهم فتحدث رائحتها الأمراض الخبيثة، فقام بهذا العمل على أكمل وجه.

١٣- بعد فرار الأعداء

قضينا زمنا طويلا، ونحن نتعاون على زرع الأرض، ونوفر أسباب الراحة والرخاء، ويأنس بعضنا ببعض، وسرعان ما تمت الألفة بيننا جميعا، وأصبحنا متحابين.

وقد سألت أبا جمعة ذات يوم، "هل ترى أننا في خطر من أعدائنا مرة أخرى؟"

فقال لي، في بصوت الحازم المتأكد "كلا، لا طريق إلى عودتهم بعد هذه الخسارة، وما أظنهم نجوا من العاصفة التي هبت عليهم، أثناء هروبهم، ولو نجوا منها، لما وجدوا من الشجاعة ما يساعدهم، إلى الرجوع مرة أخرى، فقد أجنهم الرصاص، وسيحكون على أهلهم وأصحابهم ما رأوه من الصواعق والرعود التي أهلكت جماعة من رفاقهم، ولقد سمعت بعضهم يتحدث، أثناء فراره، وهو مدهوش مما رأى وقد ملأته الحيرة والعجب، فلم يستطع أن يهتدي إلى تفسير ما حدث من الصواعق، وتسخير الرعود والفلك للفتك بمن يريدون، على مسافة بعيدة دون عناء".

وقد صدق الشيخ في ظنه وتقديره، فقد علمت فيما بعد، أن أعداءنا أخبروا بني وطنهم بعد أن نجوا من الغرق، أنباء عن الأهوال التي لاقوها مننا، فملئوا قلوبهم رعباً وخوفاً، وأيقنوا أن هذه الجزيرة مليئة بالجن والعمالقة، فلم يجروا على القرب منها بعد ذلك اليوم، على أنني استعددت لقتالهم، وترقبت عودتهم وقتاً طويلاً، حتى اقتنعت بأنهم يئسوا من العودة، فاطمأنت نفسي، وانصرفت إلى التفكير في العودة إلى وطني، ومرت بنا سنوات عديدة، ونحن سالمون في تلك الجزيرة البعيدة، وقد سهل علينا أن ننجز كل ما نحتاج إليه ونحن متعاونون.

وقد عرفت من الإسباني أن عدد أصدقائه من الإسبانين الذين نجوا من الغرق، يبلغ ستة عشر، ولديهم كثير من البنادق والأسلحة، ولا ينقصهم إلا الرصاص والبارود، وقد حاولوا العودة لبلادهم، ولكن أرادوا تجهيز معداتهم، فأقاموا في تلك البلاد مكرهين، فسألته "أتراهم ينفذون اقتراحي، إذا هيأت لهم أسباب السفر؟".

فقال لي "لا يوجد إلى نفوسهم أحب من تحقيق هذه الأمنية." واقترح علي أن أذهب مع أبي "جمعة" لمقابلتهم، فأذنت له في ذلك، بعد أن أقسم لي، إنه سيكون هو ورفاقه رهن إشارتي، وسيأخذ عليهم العهد بالوفاء لي، قبل أن يحضرهم إلى جزيرتي وبعد زمن قليل، ركب الإسباني والشيخ زورق الأعداء بعد أن زودتها بكل ما

يحتاجان عليه من طعام وسلاح، ورجوت لهما سفرا سعيدا وعودا
حميداً.

الفصل الثامن

العودة إلى الوطن

١- المفاجأة

ظللت أترقب عودة الشيخ والإسباني ثمانية أيام، ثم وقع لي حادث لم يخطر على بالي، فقد استيقظت من نومي على صراخ "جمعة" وهو يصيح وينادي بأعلى صوته.

"سيدي سيدي! لقد اقتربوا منا."

فارتديت ثيابي، من فوري، وأسرعت نحو الشاطئ، ونظرت في البحر، فرأيت زورقا شرايعا يتجه نحو جزيرتنا، وهو على بعد ميل ونصف منا، فأمرت جمعة أن يتريث في الأمر، حتى نعرف حقيقة الأمر، وأكدت له أن راكبي الزورق ليسوا أصحابنا الذين أرسلنا أباه والإسباني لإحضارهم، فليس في مقدورنا أن نعرف، أعداء لنا أم أصدقاء؟.

ثم صعدت إلى قمة الجبل، ورأيت من خلال منظاري، سفينة واقفة على مسافة ميلين ونصف ميل تقريبا، وقد عرفت من

أسلوب بنائها أنها سفينة من سفن بلادنا، فأيقنت أن خلاصي من الأسر قريب، وفاض قلبي فرحا وسرورا، ولكنني شعرت، في نفسي، بشيء من الانقباض ينغض علي هذا الفرح.

فقد أحسست بأنه شر، لأنني لا أستطيع أن أفسر اقتراب مثل هذه السفينة من تلك الجزيرة البعيدة، على غير حاجة إلى المرور بها، ورأيت أنه من الحكمة أن أتريث، حتى أتبين الحقيقة واضحة، لا لبس فيها ولا غموض.

٢- شكوى الربان

ولما رسا الزورق عددت راكبيه، فهم أحد عشر من بني وطني، ورأيت من بينهم ثلاثة مشدودي الوثاق، ثم قفز خمسة رجال إلى الشاطئ يقودون أسراهم بالحبال، فلم أفهم شيئا، ولم أعرف حل هذا اللغز الغامض.

فقال لي خادمي جمعة "لا شك في أنهم سيأكلون أسراهم كما يفعل بنو وطننا".

فأكدت له أن هذا لن يكون، ولن يتعدى انتقامهم من أسراهم أن يقتلوهم، أما أن يأكلوهم فذلك ما لا يدور بأذهانهم، وبعد قليل تركوا الأسرى في مكانهم، ثم ذهبوا يجوبون الجزيرة، متنزهين،

حتى الساعة الثانية بعد الظهر، فوقفوا يستريحون تحت أشجار الغابة، بعد أن اشتد حر الشمس وأجهدهم، فانطرحوا على الأرض، وتهيأوا للنوم، فدنوت من الأسرى، وسألتهم عن مصدر شقائهم، فخافوا عندما رأوني، ولكنني طمأنتهم حتى اطمأنوا، ورأوا أملا كبيرا في خلاصهم.

وقد قال لي أحدهم، وقد بدأ يدمع "أنا ربان السفينة التي تقل هؤلاء الملاحين، وقد ثار علي رجالي وتمردوا، وعزموا على أن يتركوني في هذه الجزيرة الخالية من الناس والنبات تلك، مع هذين الرفيقين اللذين رفضا أن يساعدوهم في تمردهم وعصيانهم.

٣-النصر

فسألته "أتعاهدني على أن تقلني وصاحبي جمعة في سفينتك، إذا أنقذتك من هذه الورطة؟".

فقال "لو تم ذلك ، لأصبحت رهن إشارتك".

فرسمنا خطة بارعة للقبض على العصاة، والاستيلاء على زورقهم، وقد فاجأناهم وهم نائمون، وأوهمتهم أن لدي جيشا كبيرا، فاضطر أكثرهم إلى التسليم لنا، وعاهدونا على الإخلاص.

ثم ذهب الربان وجمعة ورفاقه إلى السفينة، وأسروا وكيل الربان

و معه من أشعل نار الفتنة، وأطلقوا سبع طلقات من مدافع السفينة إلانا لانتصارهم، فلم أعد أتمالك من الفرح، ولم أكن أصدق ما أرى، فارتيمت على فراشي، واستسلمت لنوم عميق.

ثم جاء الربان وعانقني وقال لي "إن السفينة وربانها وملاحيها ليسوا إلا ملك يديك، وطوع إشارتك"، فأيقنت وقتها، بالخلاص وغلبني السرور على أمري، فلم استطع أن أتفوه بكلمة واحدة، ثم أفقت من ذهولي ودهشتي، فأقبلت على الربان أعانقه وأشكره، وقد أحضر لي الربان هدايا فاخرة، وأطعمة لذيذة، وثياب جميلة، وما إلى ذلك من التحف والطرف.

٤-معدات السفر

ولم يبق علينا إلا أن نستعد للسفر، وقد استقر رأينا على ترك زعماء الثورة من الملاحين في تلك الجزيرة، حتى لا يفسدوا علينا أمرنا، وقد شرحت لهم وسائل العيش وأساليب الحياة في هذه المنطقة، وعلمتهم كيف يصنعون الخبز، وكيف يبذرون ويحصدون وكيف يجففون العنب، وما إلى ذلك من ضروريات الحياة، ثم ذكرت لهم أن ستة عشر إسبانيا قادمون عليهم، بعد أيام قليلة، وتركت معهم كتابا إليهم أوصيهم بهم خيرا، وأخذت عليهم المواثيق والعهود أن يعيشوا جميعا متعاونين متحابين.

وتركت لهم ما كان لدي من السلاح، وهو خمسة مسدسات، وثلاث بنديات، وثلاثة سيوف، كما تركت لهم كل ما بقى عندي من البارود والرصاص، وشرحت لهم : كيف يتعهدون المعزى؟ وكيف يحلبون لبنها؟ وكيف يصنعون منه الزبد والجبن؟.

٥- في أرض الوطن

وفي اليوم التالي، ودعت هذه المملكة البعيدة، وأخذت معي قبعتي، وهي من جلد ماعز، كما علم القارئ، مظنتي وبيبغائي، وأخذت ما كان عندي من النقود، وقد علاها الصداً لطول احتجاجها في هذا الزمن، ثم أقلت بنا السفينة في التاسع عشر من "ديسمبر" عام ١٦٨٦م بعد أن لبثت في هذه الجزيرة ثمانية وعشرين عاماً وشهرين وتسعة عشر يوماً، وقد فرح "جمعة" بمرافقتي إلى بلادي، وأثر صحبتي على كل شيء.

ومن عجيب المصادفات أن يوم خلاصي من هذه الجزيرة هو يوم خلاصي من الأسر في رحلتي السابقة، التي عرفها القارئ العزيز، وفي اليوم الحادي والعشرين من شهر "ينية" عام ١٦٨٧ م وصلت إلى "لندن" بعد أن غبت عنها خمسة وثلاثين عاماً.

٦-السفر إلى "لشبونة"

رأيتني غريبا في بلادي، ووجدت والدي قد ماتا منذ زمن طويل، ولم أجد أحدا يعرفني من رفاقي القدماء، فعزمت على السفر إلى "لشبونة" لأتعرف وسيلة إلى الاستفسار عما حدث لقرיתי في "البرازيل" وقد عجلت بالسفر إلى "لشبونة" ومعني جمعة، فبلغناها في أبريل.

ولحسن حظي عثرت على ربان السفينة الذي أنقذني في رحلتي الأولى حيث فررت من الأسر، وكان قد شاخ وترك سفينته لولده، فذكرته بقصتي، وسالته عن قرיתי في "البرازيل" فأخبرني أنه لم يذهب إليها منذ تسع سنوات، وأنه لم يتعب بأرسال الرسل إلى شركائي، حتى ظفر بعد بضعة أشهر، بنصيبي من المال والبضائع، فوصلت ثروتي إلى خمسة آلاف من الجنيهات، وقد ضمنت بذلك ريعا سنويا، من قرיתי بالبرازيل، لا يقل عن ألف جنيه، فشكرت الربان المحسن اعترافا بفضله علي وصنيعه الذي أسلفه إلي. وبقيت عدة أشهر حائرا مضطربا، لا أدري إلى أي بلد أقصد؟ ثم استقر عزمي على السفر إلى "إنجلترا".

خاتمة القصة

أهوال البر

١-السفر إلى "مدريد"

بقيت مترددا في الطريق التي أتخير سلوكها، وشعرت بخوف شديد من ركوب البحر، بعد ما لقيته من أخطار ومتاعب، وقد خيل لي أن السفر في البر آمن منه في البحر، فعزمت على السفر إلى مدريد، بحيث أجتاز طريق البر إلى "فرنسا"، ثم لا يبقى علي إلا مسافة قصيرة أعبرها، في البحر، بين "كاليه" و "دوفر".

وقد وقفت إلى رفاق يصحبونني في هذه الرحل الطويلة، وكان عددهم ستة من السادة، وخمسة من الخدم، حتى وصلنا إلى "مدريد".

٢- الذئبان

وقد اضطررنا إلى مغادرة "مدريد" لقرب حلول الشتاء، وعلمنا أن الطريق، التي قصدناها، خطيرة في هذا الفصل، وقد كان الشتاء قاسي البرودة، ورأينا الثلوج تغطي الجبال، فندمنا على مخاطرتنا بالسفر في ذلك الوقت المشئوم، وكان معنا دليل ذكي شجاع، ما زلنا سائرين، عدة أيام، حتى قطعنا مرحلة كبيرة في رحلتنا المضنية، وكان الدليل يتقدمنا أحيانا، ثم يعود إلينا ليرشدنا إلى الطريق.

وفي ذات مرة بعد عنا، كعادته، فانقض عليه ذئبان، ورأى الدليل هلاكه محققا وشيكا، فصرخ من الخوف، فأدركه "جمعة" وأطلق رصاصة على أحد الذئبين، فقتله قبل أن يفترس الدليل، وفر الذئب الآخر هاربا حين رأى مصرع أخيه.

٣- الدب

ثم رأى "جمعة" دبا هائل ضخما مقبلا عليه، فاشتد رعبنا ولكن جمعة سخر منه وظهرت على وجهه علامات الفرحة بمصارعة الدب، ثم التفت إلي قائلا "أرجو ألا تعكروا علي صفائي، فأني

أحب أن أداعب هذا الدب، فأفرحكم قليلا، فحذار أن تطلقوا عليه الرصاص".

ثم قذفه جمعة بحجر في رأسه فجرى الدب مسرعا إليه فصعد جمعة شجرة عالية، فوقف الدب تحتها قليلا ثم تسلقها، فمسك جمعة بأحد الأغصان، وظل يهز الغصن هزا عنيفا، وهو ساخر من حيرة الدب، الذي ظل يترجح في أثناء ذلك، ثم صوب جمعة رصاصة إلى إذن الدب، بعد أن أرقصه طويلا، فقتله، وقد أضحكنا كثيرا.

٤- ليلى هادئة

ورأينا الليل يقترب، والنهار يوشك أن ينقضي، فضاعفنا السير مسرعين، لنجتاز المسافة القليلة الباقية علينا في تلك الأودية المخيفة المفزعة، وما غربت الشمس حتى مرت بنا خمسة ذئاب، فلم نابه لها، وكنا مستعدين في كل لحظة لمداغمة الذئاب الكثيرة التي ستعترضنا في الطريق، كما أخبرنا الدليل.

وما تقدمنا نصف فرسخ بعد ذلك، حتى رأينا ذئابا كثيرة تنهش لحم حصان ميت، وقد مزقته تمزيقا.

ولم نعدى مرحلة قصيرة أخرى، حتى ملأت الذئاب الجو بعواتها، ورأينا أكثر من مائة ذئب تحيط بنا، مستعدن للوثوب علينا، والفتك بنا فأطلقنا عليها الرصاص، وصرخنا صرخات عالية لنخيفها. فولت الذئاب هاربة.

ولما قطعنا مرحلة أخرى، أحاطت بنا قطعان كبيرة، وسمعنا صوت رصاصة بالقرب منا، ورأينا جوادا يجري بسرعة كبيرة، وتجري وراءه مجموعة من الذئاب، فعلمنا أنه سيموت بالتأكيد.

وما سرنا خطوات قليلة، حتى رأينا جثة جواد آخر فتكت بها الذئاب، وإلى جانبها جثتا فارسين، فلم تبق منهما الذئاب إلا العظام، فعلمنا أن أحدهما هو الذي أطلق الرصاصة التي سمعنا دويها منذ حين.

ونحن محتارون خائفون من هذا المنظر المخيف، إذ أتى علينا أسراب الذئاب، ما لا قبل لنا بمقاومته، فقد أحاط بنا نحو ثلاثمائة ذئب، فاحتمينا بشجرة قريبة.

وبعد أن أكملنا المسيرة، ظللنا نطلق عليها الرصاص، فتراجعت، ثم هجمت علينا مرة أخرى، وما زلنا نحاربها بشجاعة، حتى قتلنا منها نحو ستين ذئبا، وكسبنا المعركة، بعد جهاد عنيف، وانتصرنا على الذئاب بأعجوبة لا شبيه لها في الأعاجيب.

٥-خاتمة الرحلة

ثم قطعنا المرحلة الباقية مسرعين، حتى وصلنا إلى المدينة، حيث أتممنا رحلتنا، بعد ذلك آمينين.
وسأذكر دائماً ما حييت، هذه الرحلة البرية المخيفة وما لقينته بها من أهوالها وأهوال البحر.
وقد حدثت نفسي بأن أقضي بقية عمري في سلام واطمئنان وأمن.